المحاضرة الأولى

أهمية دراسة علم اجتماع البيئة
مفهوم البيئة ومجالات دراستها

- بدأ الإنسان منذ وجوده الأول قصة كفاح مع البيئة محاولاً فهمها والتعرف على إسرارها وذلك للسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته ورفاهيته.
- من خلال تراكم أفكار الإنسان عن ما حوله وتعديلها المستمر

طور الإنسان نسق من المعرفة ومنهجاً للبحث ليرتقي بقدرته على التحليل والتفسير والتنبؤ

- ومن ثم تتابع ظهور العلوم المختلفة كأنساق معرفيه تستهدف الكشف عن القوانين التي تحكم سير الظواهر من حوله وتربط الأسباب بالمسببات لتفسير ما هو كائن والتنبؤ بما سيكون
- والمتتبع لتاريخ نشأة العلوم يدرك إن اسبق هذه العلوم نشأة هي التي كانت تتخذ من البيئة موضوعاً لها مثل الفلك والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا
- أول محاولة لتوضيح العلاقة بين الحياة البيئية والكائن الحي كانت كتابات داروين خاصة كتابة عن أصل الأنواع
- ظهرت بعد ذلك الدراسات الأيكولوجية مثل ايكولوجيا النبات والحيوان.
وتعتبر ايكولوجيا النبات وايكولوجيا الحيوان هي أول دراسة علمية منظمة لدراسة علاقة الكائن الحي والبيئة
- بدأت على يد ارنست مايكل وكان يقصد بها الدراسة التي تعني بتحليل بناءات الكائنات الحية وسلوكها في علاقتها وتأثرها بالعيش مع كائنات اخرى من انواعها أو انواع اخرى وتأثرها بخصائص مواطنها التي تعيش فيها
- وكان من الطبيعي إن تمتد وجهة النظر الايكولوجية لتستوعب دراسة الانسان في محاوله لفهم وتحليل شبكة الحياة وعملياتها وموجهاتها في المجتمع الانساني
- ونظراً لما يختص به الانسان من قدرات وخصائص بدأت الساحة العلمية تشهد ظهور مراحل جديدة لدراسة الانسان والمجتمع الانساني فظهرت الايكولوجية البشرية
- وهي محاوله لتطبيق المبادئ الايكولوجية العامة على دراسة الإنسان مع بعض التعديلات التي تتلاءم والطابع النوعي والمتميز للنوع الإنساني
- ولقد أدى الاهتمام الايكولوجي بدراسة الإنسان في علاقته بالبيئة في أوسع معانيها إلى مسارعة العلوم الإنسانية والسلوكية لتبني المراحل الايكولوجية لمعالجة ما يختص به كل من منهما من جوانب هذه العلاقة.
- فقد وجد علماء الجغرافيا البشرية في هذا طريقه للبحث أكثر ملائمه لدراسة موضوعاتها التقليدية كالتوزيع المكاني للموارد وتبيان اثر البيئة الطبيعية على النشاط الإنساني ودراسة مظاهر ونتائج الفعل الإنساني في مجال تعديل البيئة من حوله.
- المشكلة المحورية في الايكولوجيا البشرية المعاصرة هي محاولة فهم الكيفية التي ينظم بها السكان انفسهم خلال عمليات تكيفهم لبيئة محدودة ومتغيرة باستمرار

- المشكلة المحورية في الجغرافيا المعاصرة دارت حول كيف ولماذا تعمل العوامل والعمليات المكانية على الابقاء على البيئة أو على تغيرها . وكيف يؤثر البناء المكاني في السلوك البشري
- وهنا لم تدرس البيئة من منطور استاتيكي ثابت لشكلها المكاني ومساحتها بل درست من منظور التفاعل الوظيفي لكائنات حية مع بيئة فيزيقية وبيولوجية وثقافية
- وحاولت الجغرافيا المعاصرة إن تفهم كيف يسهم السلوك المكاني (أي انماط السلوك التي تنجم عن التكيف لظروف البيئة) في تحديد عمليات الاستخدام الممكن والمحتمل للمكان .
- واسهامه في تحديد عمليات تشكيل المكان(التي تؤدي لإحداث تغيرات تدريجية في البيئة)
- وإسهامه في عمليات تحويل المكان (التي تحدث تغيرات جزرية في البيئة)
- كذلك اهتمت الدراسات والبحوث السيكولوجية المعاصرة بالبيئة
- انتقلت إلى مجال الملاحظة المباشرة للسلوك الانساني في ظروف طبيعية غير موجهه ومشروطة ،ادى ذلك لظهور علم النفس البيئوي أو علم النفس الايكولوجي
- واهم ما يميز المدخل المعاصر في علم النفس هو تركيز ه على تنوع السلوك الفردي الذي يحدث على نحو طبيعي، وعلى السياقات التي تحيط بهذه السلوك احاطة طبيعية.
- وشاع في علم النفس المعاصر استخدام مفهوم البيئة الإيكولوجية للسلوك، ويقصد بها المجموعة الكلية والمتكاملة من العوامل التي تثير السلوك وتنشطه ،كمدخل لتحديد دور العوامل غير السيكولوجية في السلوك الإنساني.

كذلك اهتمت السياسة بالبيئة :

- فقد اهتم الكثير من علماء السياسة المعاصرين بتطوير وبلورة عدد من الأفكار والتصورات وهو ما عرف بإدارة البيئة.
- التي تتضمن تشكيل البيئة الإنسانية عن طريق الإنسان نفسه ،إلى جانب ضبط السلوك والفعل الإنساني في علاقته بالبيئة .وتتمثل هذه القضية في قدرة وضع أدارة معينة للبيئة نتيجة زيادة احتياجات الإنسان وتزايد اعتماده على البيئة

هذه الزيادة أدت إلى :

- زيادة الصراع الاجتماعي الذي يفرض قدرة تدخل الدولة لتنظيم البيئة كذلك أدت إلى تزايد الضغط المتراكم على البيئة بالدرجة التي تحتم التدخل العام لحماية إمكانات سبل العيش والحياة من الدمار

- وعلم الاجتماع عندما يتصدى لدراسة البيئة فإنه ينطلق مما يمكن إن يسهم به ومن دوره في مجال تنمية البيئة وخدمة المجتمع من أهمها:

(1) المسائل المتعلقة بالسكان وتحليل الخصائص الجغرافية ،والتي تفيد في معرفة الامكانات البشرية والموارد المتاحة ،ومعرفة الصعوبات ومعوقات النهوض بالإمكانات البيئية ويفيد ذلك في وضع خطط مستقبلية تحقق التوازن بين السكان والبيئة.

(2) المسائل المتعلقة الانساق البيئية والتي تفيد في التعرف على خصائص البيئة ومواردها وطاقاتها الراهنة وطرق استغلالها ومتطلبات استثمارها ومشكلات البيئة

(3) مسائل التغير الاجتماعي والاقتصادي للمحليات خاصة التي تعني بمصاحبات أو انعكاسات هذا التغير على البيئة المحلية، وبتوجيه نتائج التغير في المسار الذي يدعم تطويرها وتنميتها .

(4)المسائل المتعلقة بالتحليل السوسيولوجي لأنماط السلوك وطرق العيش واساليبه في المجتمعات المحلية خاصة تلك الانماط التي لها دور مباشر على البيئة ايجاباً أو سلباً. ومسائل تغير سلوكيات الافراد في مجال التفاعل البيئي

(5) مسائل الوعي البيئية خاصة تأثير انعدام هذا الوعي في وجود المشكلات الصحية والاقتصادية والتنموية .

(6) المسائل التي ترتبط بتخطيط وتطوير البيئة من اجل التنمية خاصة مسألة النمو الحضري العمراني، وتغيير أنماط استخدام الأراضي وإعادة توطين السكان والنشاطات الاقتصادية. ويمكن أن نحدد لعلم الاجتماع ثلاث مجالات أساسية في هذا الإسهام.

المجال الاقتصادي :

ويرتبط هذا الجانب بمفهوم أساسي من مقومات المركب البيئي وهو التكنولوجيا.

- فقد أدى ظهور المجتمع الحضري الى تغيير واضح في الطريقة التي يعيش بها الإنسان ،وتمثل ذلك في تقسيم العمل والتخصص الذي ادى إلى زيادة الانتاج.
- حياة المدينة غيرت الكثير من المفاهيم الاقتصادية الهامة كالعمل والملكية والفقر والقوة والرفاهية ،كذلك غيرت انماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية بين مختلف العناصر المشتركة في الموقف الاقتصادي

مثلا التخصص وتقسيم العمل في البلدان المتقدمة

- ادى إلى المزيد من التقدم التكنولوجي
- والى تغير واضح نحو الطاقة غير البشرية ودفع عجلة التصنيع وظهور نظام المصنع وارتقاء مستوى المعيشة واتساع نطاق السوق والانتاج
- ذلك ادى لوجود شكل جديد في التنظيمات المعيشية للافراد
- انعكس ذلك على الترتيبات والتوزيعات المكانية للافراد والنشاطات وعلى استخدام الارض واتجاهات النمو الحضري والتنقلات السكانية والتركيب المهني.

المجال الاجتماعي :

- الحضرية طريقة للحياة والفكر والسلوك وليست مجرد تنظيم اقتصادي له خصائصه المتميزة أو مجرد عيش أو اقامة .
- إن الخصائص الفيزيقية والايكولوجية للمجتمع الحضري كالحجم والكثافة والتغاير، تؤثر في طبيعة وكثافة العلاقات الاجتماعية وفي ميكانزامات التفاعل والسلوك وموجهاته
- لذلك تؤدي عمليات التحضر إلى تقويض الانماط التقليدية للسلوك ،والى ظهور العديد من مشكلات التفكك الاجتماعي ومشكلات التكيف والتوترات السياسية والاجتماعية.
- وارتباط هذه المشكلات بالمدينة يعتبر دافع للمزيد من الدراسات الاجتماعية التي تعني بقضايا البيئة ويكون التركيز على المناطق المختلفة ومناطق التحول وسكنى الاقليات والعشوائيات خاصة إذا ربطنا التوزيع المكاني لهذه المشكلات بالخصائص الايكولوجية والبيئية لهذه المناطق.

المجال الفيزيقي:

يرتبط هذا المجال بتعديل انماط استخدام الاراضي ونماذج الاسكان وخلق اشكال جديدة من المرافق والخدمات العامة كشبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي والمواصلات. كذلك ادى نمو المدن وازدحامها وتوسع الصناعة إلى مشكلات بيئية جديدة في مقدمتها تلوث البيئة الحضرية وما ارتبط بها من مشكلات الصحة العامة.

مثال لبعض هذه المشكلات

أ _ مشاكل استخدام الارض :

ويزداد التنافس على استخدام الاراضي مما يهدد اشباع احتياجات المستقبل

ب – مشاكل الاسكان :

انتشار الصناعة جذب السكان للمدن ،فقد ارتبط ظهور المدينة بانتشار الاحياء المتخلفة المتميزة بانخفاض مستوى الدخل والمعيشة، مما جعل السكن غير صحي وغير ملائم ،وهو المتاح فقط للطبقات الفقيرة

بالإضافة لافتقار معظم مدن العالم النامي إلى التخطيط السكني القومي والمحلي، وترك المنافسة الاقتصادية دون تدخل من الحكومة. والدراسات في هذا الجانب تساعد على وضع الأسس العملية للسياسات السكانية وتساعد برامج وسياسات تخطيط المدن وتوجيه حركة تطوير المدن.

ج- مشكلات التوطين الصناعي :

يعتبر تلوث البيئة في المدن الصناعية من اهم المشكلات الناجمة عن التوطين الصناعي

فبقدر ما ساعد انتشار الصناعة على زيادة معدلات التحضر بقدر ما ادى إلى تلوث المناخ الطبيعي للمدن والمراكز الحضرية الكبيرة .فهناك تلوث الهواء الذي يتنفسه ساكن المدن وتلوث المياه والتلوث بالنفايات والتلوث السمعي .

أولاً تعريف مفهوم البيئة:-

- تميل اغلب المحاولات التي بذلت لتعريف الايكولوجيا إلى ربطها بمجال الدراسات البيولوجية على اعتبار أنها (فرع من البيولوجية يهتم بدراسة علاقة الكائنات الحية بالبيئة التي وجد فيها (وتحيط بها)
- كما تجمع هذه المحاولات على إن الايكولوجيا تنطلق من نقطة بدء عامة تتمثل في (مفهوم الحياة كنضال مستمر للكائنات الحية وذلك من اجل التوافق والتكيف مع البيئة وبهدف الحفاظ على بقاء النوع في بيئة محدودة ودائمة التغير)
- من هذا المنطلق ترتبط الايكولوجيا بالبيولوجيا

إذا كانت بالبيولوجيا تهتم بأصل الأنواع وتطورها وخصائص تركيباتها الفسيولوجية التي تتيح لها إمكانيات معينة للبقاء والتطور

فالأيكولوجية تعني بمدى قدرة الكائنات الحية على التوافق الفعال مع بيئتها

- على هذا الأساس تنحصر المسألة المشتركة بين العلمين في أنه عند ما يظهر نوع جديد من الكائنات الحية فإنه لابد أن يتوافق من حيث البناء والوظيفة والسلوك مع مجموعة الكائنات الحية الأخرى التي تعيش معه في نفس البيئة حتى يضمن بقائه

فهو أمام ثلاث خيارات :

(1)التوافق مع البيئة الذاتية المحيطة

(2)إن يهاجر إلى غيرها

(3)أن يفنى ويقضى عليه تماماً

- عموما يرجع استخدام مصطلح (الايكولوجيا) تاريخاً إلى العالم البيولوجي الألماني (أرنست هايكل)سنة 1869وقد استخدمها بمعنى (علاقة الكائن الحي بيئيته العضوية وغير العضوية)

- اشتق المصطلح من الأصل اليوناني اوكوس Oikos الذي يعني المسكن أو المنزل أو مكان العيش ومن ثم فهمت الايكولوجيا على أنها (علاقة الكائن الحي بيئته)

أما كلمة البيئة:

فقد اشتملت في هذا المعنى على البيئة العضوية، أي مجموعة الكائنات الحية التي تشارك في نفس المكان وعلى البيئة الفيزيقية المحيطة

- فعلاقة الكائن الحي بيئته تتضمن بالضرورة علاقته بأفراد نوعه والأنواع الاخرى التي تشارك نفس الموطن إلى جانب تفاعله مع الخصائص الفيزيقية لهذا المواطن.
- تاريخ التفكير الايكولوجي قديم يمكن أن يرجع إلى نشأة التاريخ الطبيعي خاصة عند ثيوقراسطس احد تلاميذ ارسطو، والذي اهتم بدراسة العلاقة بين الكائنات الحية ببعضها لبعض وبعلاقاتها بالبيئة غير الحية التي تعيش فيها
- لكن النشأة العلمية الحقيقية للإيكولوجيا العامة وبالتالي محاولة تطبيق المفاهيم الايكولوجية لفهم علاقة الإنسان بالبيئة تبدأ بظهور نظرية داروين عن أصل الأنواع
- فالأفكار التي نادت بها النظرية :- كالصراع من اجل البقاء والانتخاب الطبيعي وغيره من الأفكار كانت بمثابة حجر الأساس الذي استندت أليه الدراسات الايكولوجية
- لقد ركزت النظرية في مجموعها على فكرة أن البيئة كانت ولاتزال ذات تأثير انتقائي فعال على الإفراد والأنواع
- ساعدت النظرية على انتشار تصور ايكولوجي أساسي مؤداه إن البيئة تمثل النسيج الكلي للحياة ،تتفاعل فيها الكائنات الحية مع بعضها بعض ومع الخصائص الفيزيقية للموقع والمكان والبيئة التي تعيش فيها
- منذ ذلك الحين اقترنت الدراسة الايكولوجية بالاهتمام بمسألة التوافق البيئي، كما ارتبطت بها حتى في المجال البشري .وفي نطاق الدراسة السوسيولوجية يعني مصطلح ايكولوجيا ،دارسة لعلاقة الكائنات الحية ببيئتها.
- يرجع الفضل في تطوير الدراسات المعاصرة في الايكولوجيا العامة إلى الأعمال المبكرة التي قام بها علماء فسيولوجيا النبات والحيوان.

ففي أواخر القرن التاسع عشر تكونت جماعتين من علماء النبات

ظهرت أحداهما في أوربا وتطورت الأخرى في أمريكا

في الوقت الذي عنيت فيه الأولى بدراسة تركيب وبنا المجتمعات النباتية وتوزيعاتها

عنيت الجماعة الأمريكية بدراسة تطور هذه المجتمعات النباتية من خلال عمليات التعاقب

ولقد ظلت هذه الدراسات الايكولوجية التي أجريت على عالم النبات بمعزل عن ايكولوجيا الحيوان

إلى إن استطاع علماء النبات الأمريكيين تأكيد العلاقة الوثيقة بين المجتمعات النباتية والحيوانية كمقومات أو اجزاء غير منفصلة أو مستقلة من كل حيوي واحد متكامل .

ثانياً مجال البيئة العامة وفروعها:-

- تنطلق الايكولوجيا (علم البيئة) لدراسة الحياة بأشكالها المختلفة نباتيه أو حيوانية أو بشرية في علاقتها ببيئتها المختلفة
- لذلك كانت دراسة متعددة المداخل متشعبة الاهتمامات ،ارتبطت بالضرورة بعلوم كثيرة مثل بيولوجيا النبات ،الحيوان ،الفسيولوجيا، الجيولوجيا ،الكمياء والكمياء الحيوانية ،إلى جانب ارتباطها بالعلوم الإنسانية كالجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والديموغرافيا والعلوم السلوكية.
- ولقد بلغ ارتباط علم البيئة بهذه العلوم حداً اصبح فيه من العسير إن نضع حدود فاصلة بينهم

فمن المتعزر فصل سلوك الكائن الحي عن فسيولوجية أو عن ميكنزمات بيئته، أو فصل عمليات التوافق عن النشؤ والارتقاء أو عن الخصائص الوراثية ، أو فصل ايكولوجيا النبات عن الحيوان أو فصل الاثنين عن الايكولوجيا البشرية

لكن لأغراض التحليل يمكن إن تقسم مجال الايكولوجيا العامة إلى عدة فروع تختلف باختلاف البعد التصنيفي الذي يتركز عليه هذا التقسيم.

- **تعريف الايكولوجيا** هو دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته المحيطة وفي هذا التعريف توجد ثلاث متغيرات أساسية هي

الكائن الحي / البيئة / العلاقة بينهما

ومن خلالها يمكن تقسيم مجال الدراسة الايكولوجية الى الاتي:

(1)عندما نركز على الكائن الحي تنقسم الايكولوجيا العامة إلى:

أ- ايكولوجيا النبات ب- ايكولوجيا الحيوان ج- ايكولوجيا البشرية

(2)وعندما تركز البيئة تنقسم الايكولوجيا العامة إلى فروع تتعدد بتعدد البيئات

أ- ايكولوجيا اليابسة (الحياة البرية)

- ايكولوجيا الأنهار (المياه العذبة)

ج- ايكولوجيا البحار (البحار والمحيطات)

(3)عندما نركز على العلاقة بينهما نوعها، ومدى تعقدها **تنقسم الايكولوجيا إلى**

أ- ايكولوجيا الفرد (التحليلية) وهي دراسة علاقة نوع بمفرده من أنواع الكائنات الحية الموجودة بالبيئة المحيطة

ب- ايكولوجيا الجماعة (التركيبية) وهي دراسة العلاقة المتبادلة والأكثر تعقيداً بين تجمعات مختلفة للأنواع الحية وبين البيئة المحيطة

- ويمكن إن نقول إن الايكولوجيا العامة نمت على خطين متوازيين :دراسة النباتات ودراسة الحيوان

هناك فروع أخرى الايكولوجيا مثل :

أ- ايكولوجيا السكان وهي تعني بدراسة التركيب السكاني والوفيات والمواليد والنمو السكاني والعلاقات السكانية كالغزو والافتراس والتكافل والتعايش

ب- الايكولوجيا الوراثية وتهتم بدراسة ايكولوجيا السلالات المحلية والتوزيع المكاني للأنواع المتمايزة للكائنات الحية

ج- الايكولوجيا السلوكية وتهتم بدراسة الاستجابات السلوكية التي تقوم بها الكائنات الحية تجاه بيئاتها والتفاعلات الاجتماعية التي تحدث بينها وتؤثر بالتالي على دنياميات السكان في بيئة معينة

د- الايكولوجيا الفسيولوجية وهى دراسة إشكال التفاعل القائم بين البيئة الفيزيقية والكائن الحي في أطار خصائصه الفسيولوجية

هـ- ايكولوجيا الأنساق وهي تعني بتحليل وفهم بناء النسق الايكولوجي ووظيفته باستخدام الرياضيات التطبيقية وبرامج الحاسب الالكتروني وكان من فوائد هذا الفرع ظهور فرع الايكولوجيا التطبيقية التي تهتم بتطبيق المبادئ الايكولوجية العامة في ضبط وإدارة الموارد الطبيعية والإنتاج الزراعي وفي مواجهة المشكلات الحيوية مثل تلوث البيئة

المحاضرة الثانية

مفاهيم علم البيئة ومفهوم علم البيئة البشرية

اسهام البيولوجيا في تطور علم البيئة البشرية

1/ مفاهيم البيئة :

طور علماء ايكولوجيا النبات والحيوان عدداً من المفاهيم الاساسية التي حددت الاطار التصوري العام للإيكولوجيا .

وتدين الايكولوجيا البشرية في مراحل نشأتها الاولى بالكثير لهذه المفاهيم .

مفهوم المنطقة الطبيعية :

اكتشف علماء النبات ان النباتات تعيش بطريقة طبيعية مع بعضها البعض في مجتمعات محلية يكشف كل منها عن نموذج معين للبناء .

ويمثل التوزيع المكاني لأفراده اكثر جوانبه وضوحاً وقابلية للقياس .

كما تمكنوا من توضيح الى اي مدى تؤثر خصائص الموطن والموارد التي تحتاج اليها النباتات من اجل النمو والتكاثر في تحديد طبيعة المجتمع النباتي وحدوده .

وبالتالي المنطقة الطبيعية هي كل منطقة ذات ظروف او شروط خاصة، وتشغل بتركيب نباتي معين دون تدخل من الضبط والسيطرة الانسانية .

مفهوم عملية الغزو :

كذلك كشف علماء النبات عن المراحل المتعاقبة التي يمر بها تغير المجتمع النباتي ، والعمليات التي تنظم هذا التغير المنتظم .

ولعل من اهم العمليات التي اسهموا في توضيحها ما اسموه بعملية الغزو .

والتي تحدث عندما يتتابع شغل المكان بطريقة اشبه بالدورة بأنواع نباتية مختلفة . يكون من محصلاتها احلال مركب نباتي محل اخر ،بطريقة منتظمة ودورية تنتهي بعودة المركب النباتي الاصلي لشغل المنطقة لتبدأ الدورة من جديد، وهي تسمى عمليات (الاحلال والتعاقب).

مفهوم علاقة التعايش :

وتعني الاكل على مائدة واحدة مشتركة, فيها يدفع كل نوع نباتي الى التكافل مع غيرة من الانواع الاخرى اشباعاً وتحقيقاً لمطالبه واحتياجاته الاساسية للبقاء والنمو .

وهو يؤثر في غيره من الانواع الاخرى المجاورة، من خلال زيادة او نقصان فائض الموارد التي يعتمد عليها هو وجيرانه من الأنواع الاخرى .

وتظهر عملية المنافسة كنوع من انواع علاقات التعايش بين الانواع النباتية .

وفيها بحرص كل نوع نباتي على ضمان ما يحتاج اليه من غذاء ورطوبة وحرارة وضوء وماء، وهي ضروريات عيشه، مما يؤدي الى تناقص الموارد المتاحة للأنواع الاخرى التي تعتمد على نفس الموارد.

يلاحظ ان النباتات التي تتنوع مصادر غذائها او تختلف مستوياتها تستطيع ان تعيش في نفس المنطقة دون ان ينافس بعضها بعض .

اما علماء ايكولوجيا الحيوان فقد كان اهتمامهم مركزاً على ما اسموه سلاسل الغذاء .

حيث تبين لهم ان الانواع الحيوانية المختلفة تشغل مواطن خاصة ومتميزة تستهلك فيها بعضها البعض كموارد غذائية .

لذلك يميل المجتمع الحيواني الى الاستقرار والتوطن في سلاسل معيشية متوازنة .

يقوم كل نوع فيها بدور الفريسة والمفترس في نفس الوقت .

لذلك عني علماء الايكولوجيا بدراسة وتحليل النتائج المترتبة على اضطراب هذا التوازن المعيشي الأيكولوجي في المجتمع الحيوان .

ولقد ساعد فهمهم المتعمق لتوازن الطبيعة في فهم شبكة الحياة وتحديد حجمها ودرجة تعقدها . تلك الشبكة التي يشارك فيها الانسان بدور ما مع غيره من كائنات حية .

لذلك كانت المفاهيم والتصورات التي استخدموها في دنيا الحيوان ،هي نفسها المصدر الاول للمفاهيم الايكولوجية التي استخدمت في فهم وتحليل التفاعل الايكولوجي في المجتمع البشري وتفسير ما يتمثلة من بناء معيشي معين خاصة في صورته الحديثة التجارية والصناعية .

مفهوم النسق الايكولوجي :

يعتبر من المفاهيم المحورية التي احتلت مكانة بارزة في التحليل الايكولوجي .

وهو يعبر عن الفكرة الاساسية في ان كل المجتمعات الطبيعية للكائنات الحية التي تعيش وتتفاعل مع بعضها البعض ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببيئاتها .

وبالتالي ان طرف العلاقة هم تجمعات الكائنات الحية والبيئات المختلفة .

وهما يشكلان كلاً واحداً هو النسق الايكولوجي .

وهو يجسد او يشير الى الارتباط الذي تهتم الايكولوجيا العامة بتحليله وتفسير نماذجه وعملياته .

- اول من استخدم هذا المصطلح هو عالم البيولوجيا البريطاني (تانسلي) وقد ذهب الى أن الكائنات الحية لا تعيش في عزلة فيزيقية او بيولوجية، بل ان هناك تداخلاً واضحاً بين الكائنات الحية بعضها وبعض، وبينها وبين المقومات الفيزيقية والكيماوية للبيئة ،وأن هذه العلاقات المتداخلة يتمخض عنها نسق وظيفي عبارة عن سلسلة من العمليات المتداخلة والمترابطة تسيطر عليها وتوجهها علاقات سببية محددة .

ومن خلال التفاعل المتبادل يستطيع النسق الكلي ان يحتفظ بوجوده .

وتكاد تجمع مختلف التعريفات التي قدمت للمفهوم ، **على أن النسق الايكولوجي يتميز ببعض الخصائص الاساسية هي:**

1) انه كل واحد لا يتجزأ، فهو يجمع بين البيئة وعالم الانسان والحيوان والنبات في اطار واحد يمكن من خلاله تحليل انماط التفاعل القائم بين عناصره ومقوماته.

2) انه كل بنائي متكامل

وتعتبر هذه الخاصية عن عمليات تدفق الطاقة وتوزيع شبكة الغذاء بين مختلف الانواع الحية التي يحتويها بداخلة بطريقة نظامية وشاملة.

3) انه كل بنائي وظيفي

وتعبر هذه الخاصية عن حقيقة ان عمليات تدفق الطاقة، وانتقالها وتوزيع الغذاء حسب نظام معين (سلسلة الغذاء)، تتم فقط في ضوء الادوار الوظيفية التي تلعبها مقومات النسق الاساسية من اجل استمراره وبقائه.

مفهوم مقومات النسق الايكولوجي الاساسية :

يقصد به كل الاجزاء او العناصر المتمايزة التي يتركب منها بناء النسق الايكولوجي، وتتنوع هذه المقومات الى مقومات حيوية واخرى جماديه او غير حية .

-المقومات الحيوية للنسق تشمل كل الكائنات الحية التي تعيش داخل حدود النسق كالنبات والحيوان والميكروبات والانسان.

المقومات الجماديه هي كل ما تبقى من عناصر بناء النسق ولا تندرج تحت النوع الاول.

ومع ذلك ضرورية ولازمة لبقاء واستمرار المقومات الحيوية وهي كالهواء والماء والتربة .

المقومات الحيوية للنسق :

تنقسم الى نوعين مختلفين :

1) الكائنات الحية ذاتية التغذية ،وهي مكتفية بذاتها تقوم بالعملية الفسيولوجية المرتبطة بالتركيب الضوئي ،والتي تسمح لها بإنتاج غذائها بنفسها. مثل النباتات الخضراء .

2) الكائنات الحية عضوية التغذية وهي تشمل كل النباتات والحيوانات التي لا تقدر على انتاج غذائها بنفسها وتعتمد بالتالي على الغذاء الذي توفره الكائنات ذاتية التغذية .

مفهوم الموطن :

هو ذلك الجزء الفيزيقي لبناء المجتمع المحلي الذي يحد فيه الكائن الحر مكاناً ملائماً للعيش والاقامة .

مفهوم الاقصاء التنافسي :

يفترض انه نتيجة للتفاعل التنافسي بين الكائنات الحية ، تحاول الانواع المختلفة ان تبعد او تقصى كل الانواع الاخرى التي تشاركها نفس البيئة .وتقوم هي بدورها بعمليات متلاحقة للتكيف تحاول من خلالها ان تستأثر وحدها بالموارد المتاحة ،الامر الذي يؤدي في النهاية الى خلق تقسيمات وحواجز بين مواطن الانواع المختلفة .

- والكائنات تحاول ان تخفف من التنافس عندما تتخصص في نوعية معينة من الموارد المتاحة تختلف عن الموارد التي تحتاج اليها الكائنات الاخرى .

2/ مفهوم علم البيئة البشرية :

يتسع مجال الايكولوجيا العامة ليشمل دراسة الكائنات البشرية .

والانسان نوع متميز يشارك غيرة من الكائنات الاخرى نسيج الحياة في اغلب اجزاء العالم الارضي .

- فالإيكولوجيا البشرية شأنها شأن ايكولوجيا النبات والحيوان، تعد تطبيقاً لوجهة النظر الايكولوجية العامة على قطاع معين من نسيج الحياة الارضية وهو نوع متميز هو الانسان ان المجتمع الانساني على الاقل في احدى جوانبه الاساسية عبارة عن تنظيم من كائنات حية متوافقة او قادرة على التوافق مع كل ما يحيط بها .
- ومن ثم كان ظهور او تطوير الايكولوجيا البشرية امتداداً طبيعياً لانساق الفكر وادوات البحث التي تطورت لدراسة اشكال الحياة الجمعية للكائنات الحية الدنيا في دراسة النوع الانساني .
- لذلك تكاد تجمع التعريفات التي قدمت للإيكولوجيا البشرية على انها دراسة ((شكل مجتمع الكائنات الانسانية وتطوره في ارتباطه بعوامل البيئة المحيطة)) .
- او هي ((دراسة بناء وتطور المجتمعات الانسانية في حدود العمليات التوافقية التي تقوم بها الكائنات الانسانية في استجابتها لبيئاتها المختلفة مع التركيز على الوسائل التكنولوجية وانماط التنظيم التي تجعل هذا التوافق رمزاً ممكناً واكثر فعالية)) .

بناء على هذه الرؤية تعد الايكولوجيا البشرية فرعاً من فروع الايكولوجيا العامة .

تهتم بتطبيق المفاهيم والمنظورات والمبادئ المستمرة من العلوم البيولوجية ، لبحث مسائل وموضوعات اكثر ارتباطاً بمجال الدراسات الاجتماعية .

وقد لاقت هذه النظرة قبولاً واسعاً خاصة بعد ان اعيد النظر في مكانة الانسان في الطبيعة .

تحت تأثير نظرية داروين في النشوء والارتقاء .

من الجانب التاريخي يلاحظ ان جانباً كبيراً من الفكر الايكولوجي كان متضمناً في الآراء والملاحظات التي قدمها بعض المفكرين القدامى من امثال (افلاطون و ارسطو) . خاصة في حديثهما عن علاقة حجم السكان ببناء وشكل النظم السياسية واستقرارها .

- كما امتدت في العصور الوسطى في المقارنات التي اقامها ابن خلدون بين انماط الوجود الحضري والريفي في ذلك الوقت .

الا ان المحاولات الجادة لم تتبلور الا في اواخر القرن التاسع عشر، خاصة بعد تراكم قدر كبير من المعلومات والافكار الجغرافية والاثنوجرافية والديموغرافية .

- **فقد مكنت هذه الدراسات من وضع عدد من النظريات التي تعني ببعض المشكلات ذات الطابع الايكولوجي مثل :**

تحديد حجم السكان ومواقع المدن والتنميط المكاني للأنشطة الاقتصادية والتنوعات الاقليمية في معدلات الوفيات وانتشار الامراض والجرائم .

البداية الرسمية لظهور الايكولوجيا البشرية كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية كان في عشرينات القرن العشرين .

لكن جانب كبير من اسسها التصورية وضع في اواخر القرن التاسع عشر .

خاصة اعمال ((فريدريك راتزل)) في مجال الجغرافيا البشرية وهو ما يعرف ((بالانثربوجغرافيا)) .

وفي الاعمال التي قدمها ((اميل دوركايم)) حول ((المورفولوجيا الاجتماعية)) .

وتلك التي قام بها ((كولي)) في مجال الجغرافيا الاقليمية .

ويعتبر مجال الدراسات الحضرية اخصب المجالات وانسبها لتطوير الدراسات الايكولوجية .

وكان ذلك بتأثير مدرسة شيكاغو بالولايات المتحدة الامريكية خاصة على يد ((روبرت بارك)) وزملائه وتلاميذه من بعده .

كذلك ارتبطت الدراسات في مجال علم الاجتماع الحضري بهذه الدراسات فقد وجد المتخصصين فيها انه من الملائم والمفيد ان تفسير الاختلافات بين المجتمعات التاريخية المعاصرة كما لو كانت انعكاسات لتنوع الظروف الديموغرافية والبيئوية وتغاير اساليب التوافق ووسائله .

مثال لذلك ما كشفت عنه الدراسات الاثنوجرافية الحديثة للمجتمعات البدائية المعاصرة من وجود علاقة ارتباط وثيقة بين اساليب وانماط المعيشة السائدة ، وبين شكل البناء القرابي ، وانساق المكانة الاجتماعية ، واساليب الضبط الاجتماعي ، وحجم وتنظيم الوحدات الاجتماعية والبنائية .

وقد اكدت هذه الدراسات الروابط الوثيقة بين المقومات البيئية والبشرية والتكنولوجية والتنظيمية للمجتمع الانساني .

كما اوضحت مدى تعقد هذه الروابط وتشابكها عبر المراحل المختلفة لتطور هذا المجتمع .

على سبيل المثال ما كشفت عنه دراسات علم اثار ما قبل التاريخ من نتائج مؤداها .

ان التكنولوجيا البدائية البسيطة التي استخدمها الانسان في العصر الحجري قد حققت عائداً هزيلاً لجهوده التي بذلها في مجال كسب معاشه ووقايته من مخاطر البيئة .

وكيف كانت جموع السكان في ذلك الوقت صغيرة ومبعثرة .

وكيف كان تنظيمها الاجتماعي خالي من تقسيم العمل الا في اضيق نطاق على اساس اختلاف السن والجنس .

وعندما تحول الجنس البشري للزراعة مع العصر الحجري الحديث، زادت القدرة الانتاجية للأرض وادت لزيادة الجموع السكانية كثافة واستقرار .

الامر الذي ادي الى تطوير الحرف والصنائع والى قدر ملحوظ من تقسيم العمل وتخصص الادوار الاجتماعية وتمايزها .

واهم ما يستفاد به من تتبع مراحل التطور البشري في مجال علاقة وسائل العيش بظروف البيئة والتكنولوجيا السائدة ،أن كل مراحل هذا التطور كانت تمثل اتساعاً ملحوظاً وتقدماً عن سابقتها في كل مقوم من مقومات الوجود الايكولوجي البشري .

فقد ازدادت اعداد السكان، ليس تزايد بمعدلات الكثافة في مناطق محددة، بل بمعنى اتساع المجال الاقليمي او المكاني الذي شغلته .

واتسعت حدود البيئة الملائمة، بتزايد قدرة التكنولوجيا على خلق او اكتشاف الموارد الجديدة او زيادة كفاءة الموارد القديمة .

- وبالمثل زادت التنظيمات الاجتماعية نمواً وتعقيداً وتخصصاً .
- وتشعبت العلاقات التي تربط بين الوحدات التنظيمية التي زاد عددها يوماً بعد يوم .
- ويلاحظ ان نتائج هذه التغيرات لم تكن واحدة في كل ارجاء العالم .

فقد اختلفت باختلاف الظروف البيئية والمستويات التكنولوجية وانماط التوافق والتفاعل البيئي .

ويلاحظ ان هناك تنوع هائل في المجتمعات الانسانية فهناك جماعات بدائية معزولة في مناطق نائية تعيش ظروف الحياة التي عاشها انسان العصر الحجري .

وهناك مراكز المدينة التي فيها كل اسباب التغير الحضاري للإنسان .

3/ اسهام البيولوجيا في تطوير الايكولوجيا البشرية :

ليس من الغريب ان تنمو الايكولوجيا البشرية في نفس المدرسة التي نمت فيها الايكولوجيا العامة قبلها .

كما انه ليس من الصعب ان نتتبع اسهامات البيولوجيا في تطوير الايكولوجيا البشرية .

ذلك لان معظم المفاهيم المستخدمة في الايكولوجيا البشرية كانت قد استمدت او اشتقت اساساً من الايكولوجيا العامة، التي ظهرت في الاصل كفرع من فروع البيولوجيا .

اكد هذا الامر ما اورده رائد الايكولوجيا البشرية ((روبرت بارك)) و ((ارنست بيرجس)) في كتابهما " مقدمة لعلم الاجتماع " عام 1921م .

- فقد قام كل من بارك وبيرجس باقتباس الكثير من المفاهيم والتصورات البيولوجية كمقدمة لما طوراه من مفاهيم سوسيولوجية اساسية .
- كذلك ما جمعاه في هذا الكتاب من اعمال وكتابات لغيرهم من علماء الايكولوجيا العامة، كان يشكل الجزء الاكبر من الكتاب .

- تضمن الكتاب عدة مقالات كان من بينها اعمالاً بيولوجية بحته مثل مقاله ((وارمنج)) 1909م عن ((ايكولوجيا النبات)) ومقالة ((هويلز)) 1910م عن ((بناء وسلوك مجتمعات النمل)) كما تضمن بعض المقتطفات من كتاب ((داروين)) ((اصل الانواع)) التي تركز على عمليات الانتخاب الطبيعي والمنافسة والتخصص والتنظيم .

ثم ظهر هذا الفكر في مقاله الذي نشرة 1936م تحت عنوان ((الايكولوجيا البشرية)) والتي كانت اكثر اعمال بارك تخصصاً في الايكولوجيا ،وامتداداً لما قدمه في الكتاب السابق .

ان رواد الايكولوجيا البشرية هم من المشتغلين بالايكولوجيا العامة في الاصل، ولكن كانت لهم توجهات سوسيولوجية ، التحقوا بجامعة شيكاغو اما اساتذه مثل ((بارك وبيرجس)) او كطلاب مثل((ماكينزي)) .

لذلك تأثروا بالتوجيه البيولوجي .

يلاحظ ان مفكري الايكولوجيا البشرية استخدموا { مفاهيم شبكة الحياة، وسلاسل الغذاء ، وتوازن الطبيعة ، والتكافل ، والتعاقب ، والسيطرة ، والمنافسة } لكن داخل سياق اجتماعي .

مثلاً بارك وضع تصور ((ان المجتمع الانساني يتميز عن مجتمع النبات والحيوان بإنتظامه على مستويين احدهما حيوي والاخر ثقافي، تسيطر عمليات المنافسة على اولهما ، بينما يكون الاتصال والتطابق المبدأ الاساسي الموجه للمستوى الثاني)) .

ومع ان بارك ادرج الايكولوجيا البشرية ضمن العلوم الاجتماعية الا انه تصور ان الدراسة الحقيقية للايكولوجيا تتحقق على المستوى الحيوي فقط .

وكل العمليات الاساسية في الايكولوجيا ، ترتبط في نظره ارتباطاً وظيفياً بالمنافسة .

والايكولوجيا حسب وجهة نظره هي دراسة المجتمع التكافلي الحيوي، الذي يستند على المنافسة وحدها من خلال عمليات الاتصال والوفاق والتعاون .

بالاضافة لهذا التأثير البيولوجي الذي ظهر في اعمال المشتغلين بالايكولوجيا البشرية برغم توجهاتهم السوسيولوجية .

كذلك ظهرت محاولات من جانب علماء البيولوجيا لوضع نظرية منهجية للايكولوجية البشرية .

ففي 1935م قدم(ادمز) اطاراً تصورياً للايكولوجيا البشرية ربطها من خلال هذا التصور بالايكولوجيا العامة .

ذهب الى ان

((اهم تفسير يمكن ان يقدم للعلاقات الاجتماعية هو الذي يستمد من دراسة المجتمع المحلي الايكولوجي ، رغم ما لتحليل الجانب الاجتماعي من اهمية)) .

كما اكد اكثر من مرة امكانية تطبيق الافكار والتصميمات التي تقدمها الايكولوجيا العامة في المجال البشري على نطاق واسع ولوبدرجات متفاوته .

اما (دارلنج)فقد قرر ان الايكولوجيا البشرية تهتم اساساً بعمليات التفاعل بين الانسان والبيئة ، وأنه من الصعب عليها أن تتجاهل التاريخ او الاصول او التعاقبات ،فهي كلها عمليات دينامية يجب وضعها في الاعتبار .

كما اشار الى صعوبة الفصل بين المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وبين الاطار او الخلفية البيولوجية .

ومن اهم النقد الذي وجه لموقف الايكولوجيين من الايكولوجيا البشرية الاتي :

1)التناقض الذي وقعوا فيه تجاه الايكولوجيا البشرية، فهم تارة يقررون انه لا يوجد الا ايكولوجيا واحدة، وتارة يؤكدون أهمية مقاومة فكرة تطوير الايكولوجيا البشرية ،وتارة اخرى يعترفون ببعض الخصائص التي تنفرد بها المجتمعات البشرية والتي تتعارض مع التحليل البيولوجي او الحيوي البحت .

مثال لذلك التنظيمات السياسية والقيم وانساق الثقافة .

2)اهم نواحي القصور التي تضمنتها مواقف(ادمز) و(دارلنج) وغيرهم من الايكولوجيا البشرية، تتمثل في استمرار تأكيدهم على المستوى الحيوي للتنظيم الانساني كأهم ما يجب ان تعنى الايكولوجيا بدراسته .

من أهم ما اسهم به علماء البيولوجيا انهم قدموا اطاراً يمكن ان يدعم نظرة متعددة المستويات الى الايكولوجيا البشرية .

فقد اوضحت دراساتهم انه يمكن النظر للإيكولوجيا البشرية من منظورات ثلاثة هي :

1)كدراسة للإنسان باعتباره العامل الايكولوجي المسيطر على المجتمعات والانساق النباتية والحيوانية .

2)كدراسة للإنسان باعتباره كائناً حياً يؤثر ويتأثر بالبيئة الطبيعية من حوله .

3) كدراسة للإنسان باعتباره كائناً بشرياً، يتميز عن غيره من انواع الكائنات الحية الاخرى، سواء في الطابع العام لحياته وتنظيمها وآلياتها ،او في نوعية تفاعلاته مع البيئة من حوله وما ينفرد به من قدرة على التكيف معها وتعديلها بطريقة ابداعية متميزة .

أهم التساؤلات التي تدور حولها المحاضرة هي :-

أهم المفاهيم التي استخدمت في الايكولوجيا العامة ومعناها

فروع العلوم التي استخدمت هذه المفاهيم

كيف تم استخدام هذه المفاهيم في الايكولوجيا البشرية

كيف اسهمت البيولوجيا في تطوير الايكولوجيا البشرية

المحاضرة الثالثة

علم بيئة الانسان الأفكار الأولى لتطور الإيكولوجيا البشرية

- سنتحدث في هذه المحاضرة عن المصادر الأولى والمبكرة لتطور الايكولوجيا البشرية
- ولعل من أهم ما يسترعي انتباه من يبحث في التراث الايكولوجي، ذلك التباين الواضح بين ما طرح من اراء وتصورات حول طبيعة الدراسة الايكولوجية وموقعها من الدراسات التي عنيت بدراسة أشكال الحياة أو البيئة أو الانسان
- الشاهد على ذلك التباين في نظرنا ما تدعيه علوم مثل البيولوجيا ،والجغرافيا، وعلم الاجتماع ،من انتماء الايكولوجيا لها، سواء كمجال متخصص من مجالات البحث ،أو كمدخل من مداخل الدراسة
- ولا يقتصر الامر على حد تباين وجهات النظر حول طبيعة الدراسة الايكولوجية من جانب المشتغلين بهذه العلوم فحسب ،بل يزداد الخلاف حدة حتى داخل نطاق كل علم على حدة .
- ولقد كان من أهم هذه التصورات ، ما ذهب اليه ويلز في نظرته للإيكولوجيا على انها (تركيب عام من مختلف الدراسات التي تعنى بنضال الانسان من اجل كسب العيش) .

وما ذهب اليه هانكينز في تحديد طبيعتها كدراسة للاقتصاد الحيوي ، او ما ذهب اليه بوروس وهاوس انها (دراسة في الجغرافيا البشرية) .

- وحتى في علم الاجتماع ذاته ، نجد تصورات عديدة ومتعارضه احياناً للإيكولوجيا ، مثال ذلك تصور ماكيرجي الذي اطلق عليها اسم (علم الاجتماع الاقليمي) .

وتصور ماكيفر الذي كان يفيد (انها دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية في ارتباطها بالمجتمعات الحضرية) .

وتصور ميلا ايهان على انها دراسة تركز في المقام الاول (على حياة المجتمع المحلي) في مقابل المجتمع .

وتصور جيمس كوين (على انها تعنى بتحليل الجوانب شبه الاجتماعية لبناء الحياة الجمعية المشتركة).

وتصور كالدويل على انها دراسة للتوزيع المكاني للظواهر الانسانية

والحقيقة قد لا يتسع المقام ، كما قد يصعب علينا في الوقت ذاته ، ان نعرض على سبيل الحصر كل التصورات والتعريفات التي قدمت للإيكولوجيا البشرية

خاصة وان التنوع والتباين كان سمه بارزه تغلب على جوانب التراث العلمي للموضوع

- ومع ذلك فمن المؤكد انه كان لتباين وجهات النظر حول تحديد طبيعة هذا الفرع من المعرفة من ناحية ، كما كان لتلك المحاولات العديد التي بذلت لربطها باي من العلوم الاجتماعية كمدخل من مداخل الدراسة فيها او محاولات دمجها في أي من هذه العلوم كفرع من فروعها من ناحيه اخرى من المبررات الكثيرة ما يجعل محاولة تحديد موقعها في مجال العلوم الاجتماعية او الدراسات الانسانية ليست بالأمر الهين

- ان الحياة الجمعية للكائنات الانسانية ، وبخاصة كما تبدو في الموطن الواحد والمشترك ، كانت ولا تزال موضع اهتمام عدد كبير من العلوم الاجتماعية كالديموغرافيا والجغرافيا البشرية والاقتصاد وعلم الاجتماع لذلك كان من الطبيعي ان ترتبط الايكولوجيا البشرية بطريق او بآخر بكل هذه العلوم الاجتماعية التي تعنى اما بدراسة البشر كتجمعات حية مثل الديموغرافيا ،

او بدراسة الكائنات البشرية في حياتها الاجتماعية كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، او بدراسة البيئة ومواردها كالجغرافيا والاقتصاد كما كان من الطبيعي ايضا ، ان تبذل محاولات عده لدمج الايكولوجيا البشرية كفرع او مجال متخصص للبحث والدراسة في كل منها .

- كذلك شهدت البدايات الاولى لظهور الايكولوجيا البشرية كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية اسهامات عديدة من جانب العلوم الانسانية والاجتماعية شكلت الى حد كبير ما طورته الايكولوجيا فيما بعد من اطار تصوري وما بلورته من افكار ومبادئ .
- هذا الى جانب ان استخدام المدخل الايكولوجي بصورته الاولى او المتطورة ، كان ولا يزال امراً واضحاً في عدد كبير من الدراسات والبحوث التي اجريت في مجال او اكثر من مجالات العلوم الاجتماعية والانسانية .

ومن أجل ذلك نجد لزاماً علينا ،تجنباً لما ارتبط بالإيكولوجيا البشرية من غموض –نجم عن تباين وجهات النظر حول طبيعة الدراسة الايكولوجية ومجالها ومكانتها بين العلوم الاجتماعية الاخرى

–أن نوضح النقاط الاتية :

1- تتبع الاصول الاولى لتطوير المدخل الايكولوجي مع تبيان مدى اسهام العلوم الانسانية والاجتماعية في هذا الصدد
2- تعيين مكانة الايكولوجيا البشرية بين العلوم الاجتماعية
3- توضيح وتقييم حدود استخدام المدخل الايكولوجي في الدراسات الانسانية

<u>المصادر الاولى والمبكرة لتطور الايكولوجيا البشرية :</u>

من الملاحظ أن جانباً كبيراً من تراث ما أصبح معروفاً فيما بعد باسم الايكولوجيا البشرية ،قد تطور بشكل أو بآخر من جانب المؤرخين والفلاسفة وعلماء الجغرافيا ،تحت اسم الاتجاه البيئوي حيث بدأ الاهتمام بدراسة العلاقة بين السكان وسبل عيشهم وبيئاتهم منذ ظهور كتابات مالتوس_وحيث بزلت محاولات عديدة لفهم نسيج الحياة وما يتضمنه من عمليات حيوية كظهور الانواع وبقائها وتطورها

تلك المحاولات التي بدأت على يد داروين ، وتابعها من بعده أصحاب نظريات النشوء والارتقاء

والحق لقد كان هذا الاهتمام وتلك المحاولات من أهم العوامل التي دفعت لتطوير الدراسات الايكولوجية في المجال البشري ولقد سبق لنا الاشارة الى أن الايكولوجيا البشرية قد استعارت جانباً كبيراً من اطارها التصوري والنظري من البيولوجيا ومن ايكولوجيا النبات والحيوان في وقت كان فيه هذان الفرعان أحدث ما توصل اليه البحث العلمي في مجال البيولوجية

- يؤكد ذلك أن مفهوم الايكولوجيا ذاته كان من وضع عالم بيولوجي هو" ارنست هايكل" 1869م اراد به الاشارة الى (بناء وتركيب وسلوك الكائنات الحية ، من حيث تأثرها بالعيش مع كائنات اخرى من نفس النوع أو من انواع مغايرة ، ومن حيث تأثرها بخصائص الموطن الذي تعيش فيه)

ويعتبر " وارمنج" أول من قدم هذا المصطلح في كتابه (ايكولوجيا النبات)سنة 1909م

فقد جذب وارمنج الانتباه الى حقيقة أن (لمجتمعات النبات المختلفة –مثل ما للمجتمعات الانسانية-دورات محددة للنمو والتطور)

- وربما كان اهتمام الايكولوجيا بالجانب الدينامي لشبكة الحياة هو الذي جعلها تقترب وبسرعة من مجال اهتمام العلوم الاجتماعية

وذلك لانشغال الاجتماعية خاصة علم الاجتماع ، في هذا الوقت بمسائل التطور الاجتماعي ونمو النظم والتنظيمات الاجتماعية ولقد شاركت علوم اخرى ،الى جانب ايكولوجيا النبات والحيوان بإسهامات ملحوظة في تحديد النشأة الأولى للإيكولوجيا البشرية وتطويرها

تأتي في مقدمتها الجغرافيا البشرية والاثنولوجيا والاقتصاد ،وعدد من الدراسات التي اجريت في مجال ادارة الاعمال والخدمة الاجتماعية والتخطيط والاصلاح الاجتماعي

1-اسهام الجغرافيا:

اختلف علماء الجغرافيا فيما بينهم حول تحديد مجال البحث الجغرافي ،حيث ركز البعض على الجغرافيا الطبيعية في مقابل الجغرافيا الاقتصادية التي حظيت باهتمام البعض الآخر

ومع ذلك كانت الغالبية العظمي منهم ولاتزال تنظر الى الجغرافيا على أنها دراسة (للعلاقة المتبادلة بين الانسان وبيئته)

ومن ثم بدأوا يهتمون بتوضيح كيف تؤثر العوامل الطبيعية في توزيع الناس ونشاطاتهم ومدى ما تسهم به هذه النشاطات من تعديل وتغيير لمقومات البيئة الطبيعية وتأثيراتها

لذلك لم يكن من المستغرب أن يحرص عالم مثل "باروز" عام 1922 على تعريف الجغرافيا البشرية بأنها (ايكولوجيا بشرية تركز على دراسة الاشكال المختلفة للنشاطات الانسانية ،في علاقتها بظواهر الجغرافيا الطبيعية)

وقد تابع "هوايت "و"جورج رينر " نفس فكرة التي تؤكد أن الجغرافيا البشرية ليست سوى دراسة في الايكولوجيا البشرية

وبغض النظر عما تتضمنه هذه التصورات السابقة من صدق أو ادعاء زائف فمن الملاحظ أن اسهام الدراسات الجغرافية المبكرة في تطوير المدخل الايكولوجي كان واضحاً حتى قبل ظهور كتابات" باروز" و"هوايت "ومن جاءوا بعدهما ولقد كانت الجغرافيا الحضرية من اهم المجالات التي برز فيها مثل هذا الاسهام الجغرافي المبكر

حيث قدمت هذه الدراسات الجغرافية المبكرة بعض الافكار الهامة التي شغلت حيزاً كبيراً من اهتمام علماء الايكولوجيا فيما بعد ، مثل التركز Concentration وأنماط استخدام الأرض والبناء الداخلي للمدن بل لقد

طور بعضهم نظريات انطلقت من منظور جغرافي بحت وانتهت الى نتائج ايكولوجية هامة ،كانت ولا تزال مادة ثرية لكثير من الدراسات الايكولوجية ذات الطابع السوسيولوجي البحت .

ويكشف ميولرو في مقالة له بعنوان ((تراث نسيناه)) عن التوازن التام بين البحث الجغرافي والبحث الايكولوجي والذي كان موجوداً حتى قبل الاعتراف الرسمي ((بالايكولوجيا البشرية))

في هذه المقالة ، اوضح ميوللر كيف احس علماء الجغرافيا الحضرية الاوائل بضرورة وجود اطار تصوري عام لدراسة النشاطات البشرية وتجسيداتها ومظاهرها المادية وتوزيعاتها الزمانية والمكانية

، كما ذهب الى ان العمل الذي قام به فردريك راتزل في كتابه ، الذي وقع في مجلدين ضخمين ، يعد من اكثر الاعمال شموليه وفهماً وحرصاً على توضيح او تحديد الاسس النظرية والمنهجية في هذا المجال

لقد كان مخطط راتزل موجهاً لتحديد العنصر الانساني في البحث الجغرافي وتقييمه في ضوء نسق للتفكير والتفسير معترف به ، هو الحتمية البيئوية

لذلك كان الموضوع الاساسي الذي شغل اهتمامه وفكره ممثلاً في بحث العلاقة العلية بين البيئة الطبيعية ، وبين النشاطات البشرية والتنقلات السكانية من منظور تطوري بحت

يؤدي في النهاية ، في نظره ، الى معرفه قوانين ((جغرافية الانسان)) والتي تعكس بدورها الانماط المختلفة لاعتماد الانسان على الظروف الطبيعية

ولقد عني راتزل ، بصفة خاصة ، بوضع خرائط للأقاليم الاهلة بالسكان ، وتحديد العوامل الجغرافية المسئولة عن توزيع وانتشار الجموع البشرية

وفي هذا الصدد طور عدداً من المفاهيم مثل الوضع والمكان والحدود والطرق .كما قدم تحليلات ممتازة للتنقلات المكانية التي تقوم بها جماعات السكان ، وعلاقات العزلة والاتصال بين الشعوب المتجاورة وتطوراتها الاقتصادية ، وغير ذلك من موضوعات تلقى الاضواء على جوانب مختلفة من حياتها الاجتماعية

والاهم من ذلك ، أن راتزل – وقد كان مؤسس الجغرافيا البشرية – قد لفت انظار الباحثين في مجال الجغرافيا الحضرية الى ضرورة تحليل مواقع المدن وتطورها التاريخي وتوزيعها المكاني في ضوء تأثرها واعتمادها على ظروف البيئة الطبيعية .

لذلك لم يكن من المستغرب ان يأتي باحث جغرافي مثل الفرد هيتنر فيعلن – بعد ان اشاد بجهود راتزل – ان على الجغرافيا الحضرية ان تتبنى مناهج البحث والتفسير السائدة في الجغرافيا الطبيعية ، وبخاصة جغرافيا النبات

وانه من خلال فهم التنوع والتمايز المكاني لظروف البيئة ، يستطيع الباحث ان يصنف المستوطنات الحضرية ، وان يقارن بينها ، ليصل في النهاية الى عدد من القوانين العامة والثابتة موقعها وحجمها وتطورها

ويضيف هيتنر الى ما سبق ، امكانية مقارنه المستوطنات الحضرية بالكائن الحي – وبخاصة النباتات في توافقه مع البيئة الطبيعية ، وتنافسه مع غيره ونضاله الدائب من اجل البقاء والوجود والسيادة والسيطرة وانه من خلال فهم التنوع والتمايز المكاني لظروف البيئة ، يستطيع الباحث ان يصنف المستوطنات الحضرية ، وان يقارن بينها ، ليصل في النهاية الى عدد من القوانين العامة والثابتة موقعها وحجمها وتطورها

ويضيف هيتنر الى ما سبق ، امكانية مقارنه المستوطنات الحضرية بالكائن الحي – وبخاصة النباتات في توافقه مع البيئة الطبيعية ، وتنافسه مع غيره ونضاله الدائب من اجل البقاء والوجود والسيادة والسيطرة.

ولعلنا نرى في اضافة هيتنر الاخيرة ما يدعم دعوى ان الطبيعة تمثل مستوى مطلقاً من النظام والفرضية ، الامر الذي يحتم تطبيق المفهوم الداروني حول البقاء والصراع والتكيف في مجال الجغرافيا الحضرية تماماً كما هو الحال في الايكولوجيا البشرية المبكرة

ومن ثم ظهرت الى جانب الفلسفة الطبيعية التي ميزت القرن التاسع عشر ، وكانت نموذجاً تحتذيه الجغرافيا الحضرية في اوائل القرن العشرين ظهرت فلسفة اخرى تميزت بالحتمية البيئية التي اخذت طابعاً جغرافياً ، وبخاصة عندما عنيت بتوضيح العلاقة بين ((ضبط او تأثير غير عضوي واستجابة عضوية))

2-اسهام الدراسات الاثنولوجية(علم الشعوب وثقافاتها):

تعد الدراسات الاثنولوجية المبكرة ، والتي ظهرت في السنوات الاولى من القرن العشرين ، مصدراً آخراً من المصادر الاولى والمبكرة للايكولوجيا والمدخل الايكولوجي

فقد جذب علماء الاثنولوجيا الانتباه الى حقيقة هامة مؤداها . ان الثقافات ، وبخاصة الثقافات غير المتحضرة والتي لا تعرف القراءة والكتابة ، يمكن ان تحدد وبوضوح في مناطق بعينها

كما كان لعلماء الاثنولوجيا فضل السبق في تقديم مفهوم ((المنطقة الثقافية)) الذي كان كلارك ويلز اول من استخدمه كأداة تحليلية في بحثه الشهير عن ((هنود امريكا)) سنة 1917 .

وفي هذا البحث أكد ويلز أهمية العوامل الجغرافية في تفسير التوزيع المكاني للسمات الثقافية

ومما هو جدير بالذكر ، ان بعض علماء الاجتماع الاوائل ، من امثال روبرت ردفليد ، قد تابع ويزلر في تأكيده على اهمية دراسة المناطق الثقافية ، وتوزيع الثقافة ، رغم اختلافه معه في بعض ارائه وافكاره وبإختصار ، قدم الباحثون في مجال الاثنولوجيا جهداً ملحوظاً ومؤثراً في تشكيل البدايات الاولى لتطوير المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع .

ولعل من اهم ما اسهموا في هذا الصدد:

1/التأكد على المظهر المكاني للثقافة

2/إعداد خرائط التوزيع المكاني للسمات الثقافية ومركباتها وأنماطها

3/جذب الانتباه الى مشكلات تعيين حدود المناطق الثقافية كمبحث اساسي في الايكولوجيا وعلم الاجتماع .

4/الاهتمام بتحليل خصائص المناطق الهامشية ، اي المناطق التي يغلب عليها طابع التفكك الاجتماعي ، والتي تقع ما بين المناطق الاكثر تنظيماً.

3-اسهام كتابات الاقتصاديين:

ساعدت كتابات آدم سميث وغيره من علماء الاقتصاد الكلاسيكيين ، صياغة مفاهيم ايكولوجيه اساسية كالتنافس والتعاون التنافسي ،والتي كانت بمثابة محور ارتكاز في وصف التنظيم الايكولوجي وتفسير التغيرات

الايكولوجيه أضف الى ذلك ان الدراسات العديدة التي اجريت حول قيمة الارض بكل ما تحتله من اهمية ومكانة في التحليل الايكولوجي ، قد تطورت في الاصل على ايدي علماء الاقتصاد ، ممن اشتملت كتابتهم على مادة اكثر ثراء ، كانت خير معين لعلماء الايكولوجيا الحضرية فيما بعد

4-اسهام رجال الاعمال :

والى جانب هذه الدراسات الاقتصادية ، التي تميزت بالطابع العلمي والاكاديمي قدم رجال الاعمال في اهتمامهم بتوطن مشروعاتهم مادة غنية وأكثر واقعية عن المجتمعات المحلية الحضرية ، أفادت – ولو بطريقة عارضة غير مقصودة – في تطوير المنهج الايكولوجي

ولو ان كثيراً منهم ، لم يكن على وعي بما تضمنته هذه المادة من نتائج ذات اهمية ايكولوجية نظرية ومن ابرز الامثلة التي نسوقها في هذا الصدد الدراسة الايكولوجية التي قام بها هورد رجل الاعمال الامريكي سنه 1903 عن المبادئ المحددة لقيم الارض في المدينة .

لقد عمل هورد خبيراً بإحدى مؤسسات توثيق عقود الرهن والايجارات العقارية بمدينة نيويورك ، كان اكثر احساساً بخطورة مشكلة عدم توافر البيانات والمعلومات اللازمة لانجاح مهامه ومن ثم قام بنفسه بجمع قدر كبير منها ،وبخاصة تلك التي تدور حول توزيع قيم الارض في المدينة والتغيرات التي تطرأ عليها .وقد تمكن ، من خلال هذا الجهد ، من وضع عدد لا بأس به من الخرائط لبعض المدن والمراكز الحضرية الكبرى كما سجل التاريخ المحلي لكل منها ، موضحاً نشأتها الاولى واتجاهات نموها وعوامله ,ومحللاً انماط توزيع قيم الارض فيها وقد اعتمد في ذلك كله على ما جمعه من بيانات حول القيمة الايجارية لمساكنها والمرهونات العقارية فيها .

ولعل من اهم ما يعنينا من تلك الدراسات والبحوث التي اجراها هورد ، انها اسلمت الى مجموعة من النتائج ذات الاهمية الايكولوجية النظرية والعلمية الى جانب اهميتها التطبيقية التي كانت اهم ما عني به

فلقد كشفت دراساته:

عن ان المدينة تنشأ في الاصل عند اقرب نقطة ممكنة للاتصال بالعالم الخارجي ،وانها تنمو بعد ذلك على طول اقل الخطوط مقاومة واكثرها جاذبية ، وان خصائص تركيبها الطبوغرافي ، وتكوينها الجيولوجي ، ومدى صلاحية وكفاءة الموارد المتاحة بالمنطقة تعد كلها عوامل هامة في تحديد نقطة الاصل والمنشأ واتجاهات النمو المستقبلية كما كشفت عن عمليات مستمرة لإعادة التوافق بين هذه العناصر المختلفة ، اذ غالباً ما تتعدل تأثيرات الخصائص الطوبوغرافية من خلال ما يقوم به السكان من ((قطع)) او ((سد الثغرات)) او ((اقامة جسور والكباري))

ومع ذلك تظل هذه الخصائص ذات تأثير فعال في اتجاهات نمو المدينة ،وقد أوضحت هذه الدراسات ايضاً أن الاستخدامات المختلفة للأرض داخل المدينة تتنافس مع بعضها البعض على الموقع الأفضل ،معتمدة في ذلك على قانون العرض والطلب حيث تبعد المناطق السكنية بعيداً عن مركز المدينة ،ليحل محلها دوائر الاعمال والبنوك والمؤسسات وحيث تتمايز المناطق السكنية وفقاً للمستوى الاقتصادي للسكان

فالأثرياء يحرصون على اختيار افضل المواقع ،وتبذل الطبقات الوسطى الطبقات الوسطى كل جهودها للإقامة بالقرب من المناطق السكنية للطبقات العليا ،تاركة الطبقة الدنيا وفقراء المدينة للعيش اينما استطاعوا وحيث تميل

المؤسسات والمحلات التجارية على اختلاف نوعياتها ومستوياتها الى ان تتبع المناطق السكنية ، وبالتالي تتبع تجارة الجملة تجارة التجزئة ((حيث يلاحظ ان تجارة الجملة التي تتعامل مع سلع ذات قيمة اكثر ارتفاعاً وبكميات اقل))

كما تميل الصناعات التي تعتمد على القوى العاملة والاسواق ووسائل النقل الى التوطن في مناطق اطراف المدن اما قيمة الارض في المدينة ، وسط هذه المنافسة ، فتعتمد على افضلية الموقع وتفوقه ، حيث تنخفض بانخفاض المكانة الاقتصادية للسكان الذين يشغلونها والعكس صحيح ومع ذلك لا تبقى قيمة الارض في اي منطقة بالمدينة ثابته ، بل تتغير باستمرار مع سيطرة او غزو الاستخدامات المختلفة لها كما تعتمد في جانب منها على النمط الراهن لاستخدامها وعلى نوعية واتجاهات التغير المختلفة .

لذلك فان هناك -على حد تعبير هورد – دورة تسير وفقاً لها قيمة الارض الحضرية ، من بداية صغيرة الى نمو تدريجي ، ثم زيادة الى اقصى حد ممكن ، تليها تدهور فانقراض تام لتبدأ به دورة اخرى جديدة والحقيقة ان دراسات هورد السابقة ليست الا مثالاً لعدد من الدراسات التي وجهت في الاصل لتحقيق أغراضاً عملية تطبيقية ، وخلصت في النهاية وبطريقة غير مقصودة او متوقعة الى عدد من النتائج الايكولوجية ذات الدلالة النظرية الهامة

فلقد طورت الشركات والمؤسسات الصناعية الكبرى والمؤسسات المعنية بالخدمات والمرافق الحضرية ، عدداً من البحوث والدراسات الميدانية عن سكان المدن والمناطق الحضرية ولعل من ابرز الامثلة في هذا المجال ، ما قامت به شركة بل تليفون من دراسات مكثفة حول التوزيع والنمو السكاني في المدن ، والتنقلات السكانية في عدد من الاقاليم المتروبوليت(منطقة حضرية كبرى) الكبرى وبعض المجتمعات المحلية الحضرية الصغيرة في شيكاغو ونيويورك حاولت من خلالها ان تحدد مقدماً النمو المحتمل للسكان وانماط التوزيع السكاني المتوقعة في هذه المناطق وعلى اية حال فقد اسهم رجال الاعمال والمؤسسات الكبرى في تراكم مادة تعتمد على الوقائع عن حياة المدن ، وفي اثراء وتعميق وجهات النظر حول عدد من المسائل الهامة التي تدخل في صميم البحث الايكولوجي ومما لا شك فيه ان الكثير من رجال الاعمال ، ممن قاموا بجهد ملموس في هذا الصدد ، لم يكن على وعي بالنتائج النظرية التي يمكن ان تقود اليها بحوثهم ودراساتهم الامبيريقية ولو ان اعمالهم كانت موجهة بتصوير اساسي للمجتمع الانساني مؤداه :ان هذا المجتمع وحدة موزعة توزيعاً مكانياً ، تنظيم كوحدة معيشية ذات تنظيم وظيفي محدد .وتعمل وفقاً لقوانين منتظمة للتفاعل . يمكن على اساسها وضع او تصور بعض التنبؤات المستقبلية الهامة

5-اسهامات الخدمة الاجتماعية :

مثلت المسوح الاجتماعية التي قام بها رواد حركة الاصلاح الاجتماعي ، والخدمة الاجتماعية ، لعدد من المناطق الحضرية الريفية ، جهوداً واسهامات ملحوظة في البدايات الاولى لتطوير المدخل الايكولوجي فلقد وجهت معظم هذه الجهود لدراسة مظاهر معينة من الحياة الاجتماعية في عدد من المجتمعات المحلية الريفية والحضرية ،كمشكلات الاسكان والوفيات والفقر وانخفاض مستوى المعيشة ومع أن هذه المسوح صممت اساساً بهدف طرح الحلول العملية لهذه المشكلات الا انها كانت تقدم صوراً متعددة الابعاد للحياة الاجتماعية في المناطق التي عنيت بدراستها وتعتبر المسوح التي قام بها تشارلز بوث عن احوال الطبقة العاملة في لندن

والدراسات التي كانت تمولها وتشرف عليها مؤسسة رسل ساج والمسوح الاجتماعية التي اجريت في الولايات المتحدة الامريكية والتي قدمت وصفاً كاملاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية للمدينة الامريكية مثالاً بارزاً على هذه المحاولات الرائدة .

وبوجه عام يمكن القول ان هذه الجهود الرائدة التي بذلت في مجال الاصلاح الاجتماعي والخدمة الاجتماعية ، قد ساعدت من خلال ما تمخض عنها من دراسات ومسوح اجتماعية على شيوع مدخل دراسة المجتمعات المحلية الصغرى وتطوير عدد من الاجراءات الجديدة لجمع وتفسير البيانات الموزعة توزيعاً مكانياً وتمثيلها في اشكال وصور وخرائط بيانية الى جانب انها ساعدت على نشر فكرة هامة مؤداها ان المجتمع المحلي وحدة متميزة لها تاريخها ونمط تطورها الخاص غير ان السمة الغالبة على هذه الدراسات انها لم تكن شأنها في ذلك شأن جهود رجال الاعمال من قبل مستندة على توجيه نظري ، كما لم توجه من خلال اطر ايكولوجية نظرية فقد بقيت حركة المسح الاجتماعي متميزة نسبياً عن الدراسات الايكولوجية ، رغم ما كان بين المجالين من اهتمام وفائدة مشتركة .

اخيراً ، تعتبر الدراسات العديدة التي اجريت في مجال التخطيط الحكومي – على المستوى المحلي والاقليمي والقومي والتي عولجت فيها موضوعات النمو والتنقل السكاني ومشكلات الاسكان والنقل والتجارة والصناعة وغير ذلك من الموضوعات التي ارتبطت بالمجتمع الحضري بصفة خاصة والتي عنيت اساساً بتخطيط ومواجهة الحاجات المستقبلية للمجتمع المحلي او الاقليم او الامة ككل تعتبر كلها مصادر أو أصول مبكرة لتطور الدراسة الايكولوجية ،خاصةً وأنها جميعاً قد كشفت عن ضرورة وأهمية الدراسة الجادة للتنظيم الفيزيقي للمجتمع المحلي ليس بإعتباره وحدة أو ظاهرة مستقلة ،بل في ضوء دوره ووظيفته داخل منطقة أكبر

المحاضرة الرابعة

حدود استخدام المدخل الايكولوجي

نحاول فيما يلي أن نقدم عدداً من التصورات المختلفة حول طبيعة الايكولوجيا البشرية وعلاقتها ببعض العلوم الإنسانية وتفيد مناقشة هذه التصورات المختلفة – التي استخلصناها من التراث الإيكولوجي المعاصر- في تحديد وجهة النظر السوسيولوجية حول طبيعة هذا الفرع من المعرفة ، وعلاقته بالمكونات الأخرى للنظرية السوسيولوجية العامة .

الايكولوجيا البشرية كتركيب جامع للعلوم الإنسانية :

تصور ج و بيوز J.W.Bews الايكولوجيا البشرية على أنها تركيب شامل ، يوجد أو يجمع بين كل العلوم الإنسانية المعروفة ، في كتاب له بعنوان (الإيكولوجيا البشرية) سنة 1935م فالايكولوجيا البشرية وان كانت تركز أحياناً – في نظر بيوز- على دراسة البيئة في ذاتها ، أو تعني أحيانا أخرى بدراسة الإنسان في ذاته أو تهتم في بعض الأحيان بدراسة التفاعل القائم بين كل من الإنسان والبيئة إلا أنها دائما أبداً تميل إلى النظرة إلى (مثلث البيئة ، والوظيفة ، والكائن الحي) على انه كل واحد متكامل ومحدد

ومن ثم فان الايكولوجيا البشرية ، عند بيوز ، عبارة عن وعاء معرفي أكثر شمولاً يستوعب بداخله كل العلوم التي تعنى بدراسة الكائن الإنساني وبيئته والعلاقة المتبادلة بينهما ، كالتشريح والانثروبولوجيا وعلم الأجنة والجغرافيا والجيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الاجتماع وغير ذلك من فروع المعرفة العلمية التي تعنى بدراسة أي طرف من أطراف مثلث البيئة والوظيفة والكائن الحي .

غير أننا لا نتفق تماماً مع تصور بيوز- رغم ما له من وجاهة – ونميل في الوقت نفسه إلى استخدام المصطلح استخداماً أكثر تحديداً للايكولوجيا كمجال متخصص من الدراسة العلمية ، ولنا من المبررات ما يكفي لتدعيم **تصورنا هذا منها :**

1. أن ايكولوجيا النبات والحيوان – وهي الإطار المعرفي الأوسع الذي تحدد من خلاله المعنى العام للمصطلح (ايكولوجيا) – ينظر إليهما اليوم ، وبصفة قاطعة ، على أنهما فرعان متخصصان من فروع المعرفة العلمية.
2. أن الاستخدام التقليدي للمصطلح- كما قدمته أمهات المعاجم والفهارس العلمية- يحدد الإيكولوجيا كفرع متخصص من فروع علم البيولوجيا.
3. أن الاستخدام الشائع في تراث البيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع يتصور الايكولوجيا البشرية على أنها مجال متخصص للدراسة والبحث العلمي. ونحن نعتقد انه من الأفضل لدارس علم الاجتماع أن يستخدم مصطلح الايكولوجيا البشرية بمعنى أكثر تحديداً للإشارة إلى مجال متخصص من مجالات الدراسة والبحث العلمي.

الايكولوجيا البشرية كتخصص مطابق تماما للجغرافيا البشرية :

أكد نفر من علماء الجغرافيا المعاصرين – وبخاصة الجغرافيا البشرية- ان هناك تطابقاً واضحاً ومؤكدا بين الايكولوجيا البشرية ومجال دراستهم وقد تابعوا في ذلك تصور بعض الرواد الأوائل في الجغرافيا البشرية مثل هـ.باروز H.Barrows الذي حصر مجال البحث الجغرافي وبخاصة في جانبه الإنساني ، في معالجة العلاقات القائمة بين الإنسان والبيئة ، ومثل س. ل. هوايت C.L.White وج . رينر G.T.Renner اللذان أعلنا انه (أينما يطور الجنس البشري علاقات – من أي نوع- بالبيئة الطبيعية فان دراسة هذه العلاقات تمثل موضوعاً أساسياً لعلمي الجغرافيا والايكولوجيا البشرية)

ويستطيع من يطلع على هذه الكتابات ، وعلى عناصر التراث التقليدي في الجغرافيا البشرية أن يقف صراحة على تصور الرواد الأوائل في هذا المجال الإنساني، فانه يشير إلى مجال البحث في الجغرافيا البشرية ، وان الجغرافيا البشرية ليست في نهاية المطاف الا الايكولوجيا بشرية.

وفي الوقت الذي تابع فيه بعض علماء الإجتماع الأوائل من أمثال ف. هاوس F.N.House هذا التصور السابق ، حرص البعض الأخر على وضع الايكولوجيا البشرية خارج مجال البحث الجغرافي تماماً فقد ذهب بارك R.Park مثلاً إلى أنه (لما كانت الايكولوجيا البشرية لا تتطابق مع الدراسات الجغرافيا والاقتصادية ، فإن على المرء أن يتبنى- كفرض على الأقل- فكرة أنها ليست هذا ولا ذاك ، وأنها مجال للبحث والدراسة مستقل تمام الاستقلال عن الجغرافيا وعلم الاقتصاد

وفي نفس الوقت حاول ماكينزي- الذي أعلن استقلال الايكولوجيا البشرية عن الجغرافيا- أن يحدد خصائص كل من العلمين كمدخلين متمايزين لدراسة المجتمعات المحلية وتتمثل نقطة الخلاف بين موقف علماء الاجتماع والجغرافيا البشرية في أن كلا من الفريقين ينظر إلى طبيعة العلم من منظور مختلف تماماً فمن ناحية ، يلاحظ انه رغم ما يؤكده علماء الجغرافيا البشرية- وعلى المستوى التعريف النظري- من وجود تطابق تام بين مجال البحث الجغرافي والايكولوجي نجدهم لا يلتزمون بهذا التعريف في ممارساتهم الامبيريقية ، حيث نجد أن كثيراً من أمهات الكتب الجغرافية قد أغفلت عن عمد بعض المجالات البحثية الهامة التي يعتبرها علماء الاجتماع حجر زاوية في المنظور السوسيولوجي للايكولوجيا البشرية

هذا في الوقت الذي تعد فيه كثيراً من الدراسات السوسيولوجية – والتي اهتمت بمعالجة البيئة الخارجية كوسط تتم في إطاره الأشكال المختلفة للتفاعل الاجتماعي- دراسات ايكولوجية بحتة ، وفقا للتعريفات النظرية التي وضعها الجغرافيون أنفسهم ، والنتيجة التي نخلص إليها في هذا الصدد ، انه طالما أن مجال الدراسة التقليدي في الجغرافيا البشرية لا يستوعب كل المشكلات التي ترتبط بعلاقات الإنسان بالبيئة ، فان من القصور بمكان ، أن ندعي بان كلاً من الجغرافيا والايكولوجيا البشرية مجال واحد للبحث والدراسة .

<u>الايكولوجيا كفرع من فروع علم الاجتماع :</u>

لاقى اعتبار الايكولوجيا فرعاً من فروع علم الاجتماع قبولاً واسعاً لدى عدد كبير من علماء الاجتماع ، ولعل من أهم الشواهد الدالة على ذلك ما يأتي:

1. إنشاء قسم خاص للايكولوجيا البشرية يتبع المنظمة الأمريكية لعلم الاجتماع

2. وضع الايكولوجيا البشرية كمدخل أساسي من مداخل النظرية السوسيولوجية في كثير من المقالات وأوراق العمل التي عنيت بتحديد مجالات الدراسة في علم الاجتماع ، أو تعيين نطاق النظرية السوسولوجية ومداخلها المختلفة.
3. احتواء أمهات الكتب والمراجع السوسيولوجية على فصول أو أجزاء مستقلة ، خصصت برمتها للايكولوجيا البشرية.
4. احتواء التراث السوسيولوجي المعاصر ، وقوائم مشروعات البحوث على الايكولوجيا البشرية كمجال خصب من مجالات البحث المتاحة أمام دراسي علم الاجتماع
5. تخصيص قدر لا يستهان به من المحاضرات التي يلقيها بعض علماء الاجتماع تحت عنوان (الايكولوجيا البشرية)
6. الإنكار الصريح من جانب بعض مشاهير علماء الاجتماع- من أمثال بارك وماكينزي- لفكرة توحد الايكولوجيا بأي من التخصصات الأكاديمية التقليدية والنظرة إليها – ولو على نحو ضمني- على أنها فرع من فروع علم الاجتماع المعروفة.

ويؤكد أصحاب هذا التصور السابق ضرورة أن يهتم الباحث السوسيولوجي بدراسة العلاقات البشرية المتبادلة ، كمحور ارتكاز في كل الدراسات الايكولوجية فالايكولوجي في نظر بارك ، يعني بدراسة المجتمع المحلي وليس بدراسة الفرد في ذاته ، كما انه لا يهتم بعلاقة الإنسان بالأرض بقدر اهتمامه بعلاقة الإنسان بغيره من بني جنسه

ويتابع ماكينزي نفس التصور ، عندما يوضح اختلاف الايكولوجيا البشرية عن الديموجرافيا والجغرافيا البشرية، في أنها لا تتخذ من الجموع السكانية، ولا من الموطن الفيزيقي ، ولا من المنطقة الثقافية ، موضوعاً لها وإنما تعني فقط بالعلاقات المتبادلة بين الناس.

وعلى أية حال ، فقد ترددت فكرة أن الإيكولوجيا تركز على دراسة العلاقات البشرية المتبادلة ، في أجزاء عديدة من جوانب التراث السوسيولوجي ذلك أن محاولة وصف الايكولوجيا البشرية بأنها (دراسة للمجتمع المحلي) كما هو الحال عند ميلا اليهان M.ALihan وهيللر Hillerأو على (أنها دراسة للمناطق الطبيعية) كما ذهب ماكيرجي Mukerjee ، أو على أنها تحليل للمفهوم الايكولوجي للوضع أو المكانة (عند ماكينزي)

كانت كلها محاولات تضمنت التأكيد على دراسة العلاقة البشرية ، سواء داخل التنظيم المعيشي أو داخل الشبكة المعقدة للنظم الموزعة توزيعاً مكانياً

كما أن تأكيد بعض الباحثين على مفاهيم المنافسة ، والتفاعل الايكولوجي ، والتكافل ، كمفاهيم أساسية في الدراسة الايكولوجية ، يحمل بين طياته تأكيداً واضحاً وصريحاً ، على العلاقات البشرية المتبادلة ، هذا إلى جانب أن عدداً من علماء الاجتماع قد أعلن صراحة أن الايكولوجيا البشرية تعني في المقام الأول بدارسة: أشكال العلاقات الزمانية والمكانية التي تنجم عن تأثيرات البيئة والكائنات والنظم الإنسانية التي ترتبط فيما بينها ارتباطاً متبادلاً ، وبتأثير البيئة على التجمعات الإنسانية

ونتيجة لما تقدم : يذهب البعض إلى حد القول بأنه ، إذا كان علم الاجتماع هو في الأساس دراسة لعمليات التفاعل الأساسية ولأشكال العلاقات الإنسانية المتبادلة ، وإذا كانت الايكولوجيا البشرية تعنى بدراسة هذا النوع من

العلاقات والعمليات ، فانه من المنطقي اعتبارها فرعاً متخصصاً داخل الإطار الأوسع لعلم الاجتماع ، غير أن الموقف – في نظرنا- ليس بهذا القدر من البساطة، إذا أن هذا التحديد الضيق لمجال البحث الايكولوجي قد لا يجد له مبرراً

كما أن إمعان النظر – بحيادية وموضوعية- في موضوع الايكولوجيا ومجالها يسلم إلى عدد من المبررات التي تجعل الجغرافيا البشرية – وهي التي تعنى أساسا بدراسة مشكلات علاقة الإنسان بالبيئة أحق بكثير من علم الاجتماع في احتوائها الشامل لمجال البحث الايكولوجي

ولذلك نتصور انه ما لم يتسع مجال علم الاجتماع ليستوعب كل ما تعنى به الجغرافيا البشرية وأجزاء كبيرة مما تعنى بها البيولوجيا وعلم الاقتصاد، فإن أصحاب هذا التصور لن يجدوا الأساس الصلب الذي يدعم دعواهم السابقة لانتماء الايكولوجيا البشرية لعلم الاجتماع كفرع من فروعه الأساسية.

الايكولوجيا البشرية مجال هامشي للبحث :

وقد يبدو هذا التصور – الذي لم يظهر بدرجة كافية من الوضوح في التراث الايكولوجي- أكثر ملائمة ومعقولية من التصورات الثلاثة السابقة وتقع الايكولوجيا البشرية ، وفقاً لهذا التصور الأخير ، في مفترق الطرق بين المجالات العلمية والأكاديمية التقليدية ، وبخاصة بين البيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع ،

كما تشتمل في الوقت ذاته على جوانب محددة من كل منها على حدة ولا تمثل الايكولوجيا البشرية هنا تركيباً جامعاً ، كما تصور بيوز من قبل ، بل تغطي فقط علاقة أكثر تحديداً لمقومات الثالوث الذي تصوره بيوز (البيئة – الوظيفة- الكائن الحي) بعبارة أخرى ، لا تشتمل الايكولوجيا بهذا المعنى على الدراسات التي تعنى بالبيئة لذاتها كدراسات الأرصاد الجوية مثلاً ، كما أنها لا تشتمل على الدراسات التي تعنى بالتركيب البيولوجي للإنسان كالتشريح ، بل على العكس من ذلك تستوعب فقط الأجزاء التي تعنى بدراسة علاقة الإنسان بالبيئة.

ويتفق هذا التصور الرابع ، مع التعريف التقليدي للايكولوجيا كدراسة تعنى بالعلاقة المتبادلة بين الكائنات الحية وبيئاتها المختلفة كما انه ينطوي على أساس عام تتفق عليه التصورات السابقة التي ناقشناها من قبل ، ليجعل من الايكولوجيا البشرية مدخلاً هامشياً أكثر اتساعاً للبحث والدراسة

ولقد دفع إلى هذا التصور ما بذل في مختلف التخصصات الأكاديمية المعروفة من محاولات لانتزاع أجزاء مختلفة من مجال البحث الايكولوجي :-

1. فاختصت الجغرافيا البشرية- تقليديا بذلك الجزء الذي يعنى بدراسة العلاقات المباشرة والمتبادلة بين الأفراد والجماعات وبيئاتهم الفيزيقية
2. بينما ركز علماء الاجتماع اهتمامهم على علاقات الإنسان بالانسان من حيث هي متأثرة وبطريق غير مباشر بتدخل البيئة الخارجية ،
3. هذا في الوقت الذي حاول فيه علماء البيولوجيا تطبيق المفاهيم العامة وأساليب البحث المستخدمة في ايكولوجيا النبات والحيوان على دراسة الإنسان على نحو مباشر

وبمقدورنا أن نعزي هذا الاضطراب والغموض الذي ارتبط بالتراث الايكولوجي إلى ما ذهب إليه الكثير من الباحثين في الجغرافيا والبيولوجيا وعلم الإجتماع ، من اعتبار الجانب الجغرافي أو البيولوجي أو الإجتماعي من الايكولوجيا

ولعل السبيل الوحيد أمامنا ، لتجنب مثل هذا الغموض هو أن نعيد النظر في المسميات التي أطلقت وبطريقة تقليدية على الايكولوجيا وجوانبها المختلفة ، وان نعيد وضع الحدود التي تفصلها وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى.

تتمثل ابسط طريقة للنظرة إلى المجتمع المحلي في اعتباره تجمع عددي إحصائي من السكان ، وقد ينظر إلى سكان أي مجتمع على أنهم جمع من وحدات محددة ومتميزة ، تكشف وباستمرار عن اتجاهات للتغير يمكن تحليلها والتنبؤ بها بطريقة حسابية رياضية وتمثل هذه النظرة وذلك التحليل مدخلاً من مداخل دراسة المجتمع المحلي ، يعرف (بالمدخل الديمجرافي) ،

ومن ثم فالديموجرافيا- أو علم السكان – هي ببساطة عبارة عن التحليل العددي أو الكمي لأوضاع السكان الآدميين وحركاتهم والتي تسجلها وترصدها قوائم التعددات وسجلات العمليات الحيوية أن التحليل الديموجرافي عادة ما ينحصر في دراسة الظروف المحيطة بحياة المجتمع من خلال التحليل المتعمق لعمليات الولادة والوفيات والهجرة

ولا تحتاج مهمة تعيين الحدود الفاصلة بين الديموجرافيا والايكولوجيا البشرية لجهد كبير إذ على الرغم من أن كلاهما يدرس المجتمع المحلي ، إلا أن الديموجرافيا تعنى بدراسة العمليات الحيوية لسكان المجتمع بينما تهتم الايكولوجيا بالتنظيم المعيشي للسكان الذين يكونون هذا المجتمع

وتمثل علاقة الإنسان وأوجه نشاطه بظروف البيئة الطبيعية ، كما نعرف الموضوع المحوري في الجغرافيا ولقد كان لتأكيد الجغرافيا البشرية لأثر البيئة على الإنسان بداياته الأولى – كما اشرنا – في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ذلك بنشر كتاب فردريك راتزل Friedrick Razel (الجغرافيا البشرية)

وقد تبنت الغالبية العظمى من علماء الجغرافيا البشرية تصوراً أكثر اعتدالاً لمهامهم وذلك بتأثير كتاب بول فيدال دي لابلاش pul Vidal De وقد تمثل ذلك التصور في محاول اكتشاف الطريقة التي تؤثر بها العوامل الجغرافية في السلوك الإنساني، وتحديد المدى الذي يصل إليه حدود هذا التأثير ، ومع ذلك فقد واجهت علماء الجغرافيا حقيقة أن الإنسان يكشف عن استجابات خاصة ومتميزة لبيئته الطبيعية من خلال طرق ووسائل (يتعارف عليها) ويكتسبها ، لا من خلال طرق ووسائل إلية بحتة .

من ثم اضطروا إلى (قلب الصورة) الأصلية لمشكلة بحثهم بمعنى انه بدلاً من اهتمامهم بدراسة اثر البيئة في الإنسان والسلوك الإنساني اخذوا يميلون إلى تحديد مجال الجغرافيا البشرية في دراسة تكيف الإنسان وسبل توافقه لبيئته الطبيعية

الأمر الذي جعلهم يقتربون كثيراً من مجال البحث الايكولوجي ، بل وصل الأمر ببعضهم – مثل باروز- إلى اعتبار مجالي البحث الايكولوجي والجغرافي كما لو كان مجالاً واحداً .

وتختلف الايكولوجيا البشرية عن الجغرافيا ، والجغرافيا البشرية بصفة خاصة في نواحي عديدة ، فعلى الرغم من اهتمام الجغرافي المتزايد بالظاهرة الإنسانية إلا انه لا يستطيع أن يتجرد عن انشغاله الأولي بالبيئة الطبيعية ، فالإنسان يشغل حيزاً من سطح الأرض ، وهو بالتالي يمثل جزءاً من الوسط الطبيعي الذي يعني به الجغرافي

ومن ثم كان كشف الارتباط القائم بين السكان الآدميين والعناصر الأخرى التي يتكون منها هذا الوسط الطبيعي ، مهمة أساسية من مهام البحث في الجغرافيا البشرية غير أن الإنسان لا يشغل ، فحسب ، حيزا من سطح الأرض بل قد يغير من شكله ، ذلك من خلال التعديلات التي يدخلها في الوسط الطبيعي : كإزالة الغابات ، وزراعة الحقول ، وشق الترع ، وتشييد المباني ، وتمهيد الطرق ، وإقامة السدود والخزانات ، وما شابه ذلك ، وفي هذا الصدد تختلف الايكولوجيا عن الجغرافيا البشرية : فالجغرافيا في دراستها للنشاط البشري لا تهتم إلا فيما ندر- بالعلاقات المتبادلة بين الناس

أما الايكولوجيا فهي باهتمامها بعلاقة الإنسان ببيئته الطبيعية تركز على الاعتماد الإنساني المتبادل الذي يطور استجابات السكان لمواطنهم المختلفة ، بعبارة أخرى في الوقت الذي تنظر فيه الجغرافيا إلى توافق الإنسان من زاوية التعديلات التي يحدثها الإنسان على سطح الأرض أو (الوسط الطبيعي) من حوله .

تقدم الايكولوجيا تحليلاً مفصلاً لتنظيم العلاقات التي تتضمنها عمليات التوافق البيئي وثمة نقطة أخرى للتمييز بين العلمين هي أن الجغرافيا تقدم وصفاً للظواهر والتوافقات كما هي عليه في الوقت الحاضر لأنها تهتم (بالتوزيع) أو (التركيب) أكثر من اهتمامها(بالعملية التطورية) أما الايكولوجيا فهي أكثر دينامية ، تأخذ على عاتقها مهمة وصف وتفسير العملية التطورية ، إلى جانب وصف شكل التوافق البيئي القائم ،

أضف إلى ذلك أن كلاً من الجغرافيا والايكولوجيا يمثلان مدخلين مختلفين لدراسة علاقة الإنسان بالبيئة ، حيث تقدم الجغرافيا تحليلاً لهذه العلاقة من خلال البيئة في مقابل ما تقدمه الايكولوجيا من تحليل يستند على الكائن الحي كنقطة انطلاق للبحث والدراسة .

وقد يبدو الخط الفاصل للايكولوجيا البشرية عن علم الاقتصاد ، اقل وضوحا عن الخطوط التي تفصلها عن الجغرافيا ، والديموجرافيا وعلم الاجتماع ، فقد توصف الايكولوجيا على أنها مجرد امتداد طبيعي للاقتصاد ، **خاصة أن علم الاقتصاد لا يستوعب كل مجالات الحياة الاجتماعية :**

1. إذ لا يعنى مثلا بدراسة الجوانب غير المالية للعلاقات الاقتصادية
2. كما لا يتناول العلاقات الاجتماعية التي لا تجد تعبيرا لها في نظام الأثمان والفائدة
3. ولا يهتم كذلك بدراسة النظم والمنظمات التي لا تخضع لمبدأ الربح والمنفعة كالأسرة مثلاً

ولذلك ينظر إلى الايكولوجيا البشرية على أنها امتداد للاقتصاديات التي تقع فيما وراء المجال المحدود والمعترف به للعلوم الاقتصادية ومع ذلك فانه من الخطأ أن نزعم أن الايكولوجيا فرع من الاقتصاد ومع أن المصطلحين Economy, Ecology قد اشتقا من أصل واحد مشترك ، إلا أن لكل من العلمين مجاله ومباحثه ومداخل دراسته الخاصة ،

ولعل التمييز الذي يمكن أن نسوقه بين العلمين هنا ، أن الاقتصاد يهتم بكفاءة العلاقات المطلوبة في أداء مهمة معينة في الإنتاج ، وبالتغيرات التي تطرأ على هذه العلاقات الإنتاجية مستخدما(وحدات التكاليف) مقياساً أساسياً ومن ثم يمثل الاقتصاد وجهة نظر ترتبط بتخطيط المشروعات أو إدارة الإنتاج أو توزيع السلع والخدمات

أما الايكولوجيا البشرية فتعنى بدراسة أشكال وأنماط علاقات المعيشة بين الأفراد ، وتطور هذه الأنماط والعوامل التي تؤثر في هذا التطور ، ومن ثم فهي تمثل وجهة نظر الأفراد والجماعات التي تبحث عن وضع معين في نسق متطور من العلاقات.

وأخيراً فانه إزاء ما كشف عنه التصورات السابقة للايكولوجيا البشرية من محاولات صريحة لاستدماجها في علوم أخرى كالبيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد ثم إزاء ما حاولنا أن نقدمه من جهد لتمييز مجال البحث الايكولوجي عن العلوم الإنسانية المختلفة ، يصبح بمقدرونا أن نعتبر الايكولوجيا البشرية مجالاً واحداً متميزاً للدراسة ينقسم بدوره إلى ثلاثة فروع أساسية جغرافية وبيولوجية وسوسيولوجية ومن الممكن في نظرنا أن نطلق على الجانب الجغرافي اسم (الجغرافيا البشرية)

أما الجانب البيولوجي ، فنعتقد انه إلى أن لم يتوصل علماء البيولوجيا لتسمية خاصة لمجال بحثهم ، يكفي أن نطلق عليه (الايكولوجيا العامة مطبقة على الإنسان) في الوقت الذي نطلق فيه اسم (الايكولوجيا الإجتماعية) على الجانب السوسيولوجي في الدراسة الايكولوجية **وتحقق هذه التسمية التي نقترحها عدة مزايا أهمها:**

1. يؤكد استخدام مصطلح (الايكولوجيا البشرية) بهذا المعنى الواسع – بل ويحتفظ- بتلك النقطة المحورية التي دارت حولها مختلف التصورات التي عرضناها من قبل
2. أن محاولة تمييز مجالات الدراسة الايكولوجية بمسميات خاصة أمر لا يمكن الدارس في أي منها من تحديد مجال بحثه بدقة وأحكام
3. يتيح تصورنا السابق إمكانية اكبر للإفادة المتبادلة بين الفروع المختلفة للدراسة الايكولوجية ، كما يتيح للدرس في أي مجال متخصص منها فرصة التعرف على العلاقات التي تربط مجال بحثه وتخصصه بالمجالات الأخرى للدراسة الايكولوجية ككل واحد متكامل

حدود استخدام المدخل الايكولوجي في العلوم الإنسانية :

أشرنا إلى إسهام بعض العلوم الإنسانية في تحديد البدايات الأولى لتطور المدخل الايكولوجي ، وعرضنا لبعض المحاولات التي بذلت من جانب المشتغلين بهذه العلوم لاستدماج الايكولوجيا، كمبحث من مباحثها الأساسية ، وناقشنا أيضاً المبررات التي استندت إليها هذه المحاولات ، ثم حاولنا بعد ذلك أن نكشف أهم الملامح البارزة التي تميز المدخل الايكولوجي عن ما عداه من مداخل لدراسة الحياة والبيئة والإنسان ، غير انه في محاولتنا هذه لم يغب عن ذهننا حقيقة أن المدخل الايكولوجي يختلف عن ما عداه من مداخل لدراسة الحياة والبيئة والإنسان

نحاول في هذا الجزء أن نوضح حدود استخدام المدخل الايكولوجي في مجال الدراسات الإنسانية وذلك على النحو التالي :

1-في مجال علم الاقتصاد

يكشف استعراض التطور التاريخي للمدخل الايكولوجي ولعلم الاقتصاد معا ، عن ان ثمة اعتماداً تصورياً متبادلاً بين العلمين : فلقد اقتبس داروين أهم أفكاره الايكولوجية من عالم الاقتصاد المشهور مالتوس ، فكلاهما يؤكد فكرة الصراع من اجل البقاء والوجود كما نجد باحثاً مثل ويلز H.Wells يعرف الايكولوجيا في ضوء الاقتصاد ، ويعرف الاقتصاد في ضوء الايكولوجيا، فيذهب إلى أن (الايكولوجيا امتداد للاقتصاد على مستوى العالم الحيوي كله ، وان الاقتصاد مجرد فرع من الايكولوجيا البشرية ، أو هو دراسة متخصصة لايكولوجيا المجتمع المحلي الذي نعيش فيه)

يبدأ استخدام المدخل الايكولوجي في الاقتصاد مع ظهور أعمال عالم الاقتصاد كينيث بولدونج Kenneth Boulding حتى انه فيما عدا هذه الأعمال ظل علم الاقتصاد بعيداً إلى حد كبير عن استخدام هذا المدخل فالحق لم يكن اهتمام أو معرفة الاقتصاديين بالايكولوجيا كبيرا ، كما لم يتابع بولدنج في اتجاهه هذا إلا نفر قليل من علماء الاقتصاد مثل س. وانتروب .Ciriacy wantrup S.V وروث ماك Ruth mack وغيرهما ممن تركزت أعمالهم في محاولة إيجاد بعض التوازن بين الايكولوجيا والاقتصاد، وتحديد المجالات التي تحقق التقاءهما وتكاملهما.

وقد يبدو هذا التوازن أكثر وضوحاً في نظر بولدنج ورفاقه ، في أن مصطلح Economy, Ecology قد اشتقا من أصل يوناني واحد هو Oikos الذي يقابل Eco في كل منهما ، والذي يشير إلى المنزل Houseأو المعيشة Household

كذلك يشير المقطع Logos في (Ecology) إلى الكلمة أو الحديث Diseourseأو التقرير Account بينما يشير المقطع Nemem في (Economy) إلى الإدارة ، ومن ثم فان كلا من المصطلحين يعني أساسا (بمكان عيش واحد The same Household) وهو سطح الأرض

ويتابع بولدنج نفس الفكرة ، فيذهب إلى انه (بنفس القدر الذي تهتم فيه الايكولوجيا ببحث الطرق التي من خلالها تستطيع الكائنات الحية الطبيعية- كالنبات والحيوان – كسب عيشها والحصول على كل ما يلزم بقائها وتطورها من غذاء ، فان الاقتصاد يهتم أيضاً ببحث الوسائل التي تمكن الإنسان من الحصول على مقومات عيشه ، (كما يقرر أن العلمين يهتمان بما هو ابعد من ذلك أي بدراسة كيف أن التفاعل بين الأفراد والأنواع والأجناس يكون في النهاية نسقاً كلياً متكاملاً ومتوازناً .

ويؤكد بولدنج في أخر أعماله على فكرة توازن النسق الكلي في كل من الايكولوجيا والاقتصاد فنراه يكشف عما بين نوعي التوازن من مماثلة ، موضحا كيف أن الرابطة الأساسية بين العمليات الاقتصادية والايكولوجية تتمثل فيما اسماه بالعملية الكلية لتأيض النسق : فالتأيض في الكائن الحي يماثل في نظره عملية الإنتاج في الاقتصاد ، إذ أن العملية الأولى ليست سوى تحول المدخلات inputs (وهي تقابل المادة الخام) إلى مخرجات outputs (وهي تقابل السلع أو المنتجات) وفقاً لعلاقة وظيفية محددة بينهما

وفي مقالة أخرى حدد بولدنج عدة تشابهات أساسية بين الايكولوجيا والاقتصاد حيث يرى أن كلاهما لا يهتم بالفرد لذاته بل يهتم بالفرد كعضو في نوع أو جنس معين ، وكما أن سكان أي بيئة يكونون جنساً من الأجناس إذا كان الأفراد متماثلون فيما بينهم ايكولوجيا ، فانه من الممكن أن ننظر إلى عدد من السلع على انه امتداد بسيط لأنواع أو

أجناس طبيعية اقتصادياً ، فالسيارة والأحذية ورغيف العيش تمثل في نظره أفراداً في أجناس معينة ، تماماً مثلما تكون الدواب والحيوانات بل والإنسان

ويتمثل ثاني وجوه الشبه بين الايكولوجيا والاقتصاد في نظر بولدنج ، في أن كلاهما يستخدم مفهوم (التوازن العام) فتوازن انساق الإنتاج والعرض والطلب والأثمان ، يماثل في وجوه كثيرة نسق التوازن الايكولوجي في علاقة السكان بالبيئة

كذلك فان ارتكاز توازن النسق الايكولوجي والنسق الاقتصادي على مبدأ التبادل بين مختلف الأفراد والأنواع ، يمثل وجها أخر من وجوه التشابه بين الاقتصاد والايكولوجي وتتأكد وجوه الشبه بين الاقتصاد والايكولوجيا أكثر فأكثر – على حد تعبير بولدنج- إذا وضعت في سياق مشكلة محورية واحدة للعلمين فمن المعروف أن المشكل الأساسية في كلا من الاقتصاد والايكولوجيا هي كيفية توزيع الموارد البيئية المتاحة على الأنواع المختلفة من مستخدمي هذه الموارد

أن هذه العملية – عملية التوزيع- يمكن أن ننظر إليها على أنها (مباراة) سواء في الايكولوجيا أو الاقتصاد فيها يسلك كل من الكائن الحي (بالمعنى الايكولوجي) ورجل الاقتصاد بطريقة يمكن توقعها والتنبؤ بها إذ من المتصور أن يتابع المستهلك إستراتيجية يحاول من خلالها أن يزيد إلى أقصى درجة ممكنة في وظيفة الاستخدام لديه ، بينما يحاول المنتج أن يزيد إلى أقصى حد ممكن من أرباحه (اقتصادياً) أو نمو (ايكولوجيا)

وفي مثل هذه المباراة الاقتصادية الايكولوجية المبسطة نجد أن أطرافها يعملون داخل ضغوط معينة يمثلها في الاقتصاد مسائل الميزانية والطلب والتكنولوجيا .. الخ ، وتمثلها في الايكولوجيا مسائل الطاقة (الميزانية) والأعداد (الطلب) والتوافق (التكنولوجيا) كما أن في كل حالة نجد أن كلاً من المنتج والمستهلك أكثر تقيداً بدوافع خصمه ، حتى انه بعد فترة من التوافق المتبادل(التعاقب أو الإحلال) يجد كل منهما انه من الصعب إصلاح ما بينهما من أوضاع ومن ثم يتحقق التوازن.

وعلى أية حال فان ما ذكرناه من أمثلة سابقة لتبني المدخل الايكولوجي في الاقتصاد ، لا تحدد بالضبط بداية ارتباط الاقتصاد بالايكولوجيا ، بل كانت مجرد أمثلة حديثة لموقف الاقتصاديين المعاصرين من الدراسة الايكولوجية ، وقد يبدو لنا أن هؤلاء العلماء لم يكونوا على وعي تام بالدور المبكر الذي لعبته الدراسات الاقتصادية في تطوير الايكولوجيا البشرية خاصة وان كل ما قدموه من مماثلات ومقارانات وارتباطات قد اقتصر على علاقة الاقتصاد (بالايكولوجيا الحيوية أو البيولوجية)

ومع ذلك فبمقدورنا أن نقرر أن الاستخدام المتبادل للمفاهيم الايكولوجية والاقتصادية يرجع – وان كان في جانب واحد فقط – إلى أول كتاب قدمه بارك بالاشتراك مع يرجس ، والى أعمال بارك المبكرة ، وأعمال ماكينزي ، وغيرهم من رواد المدخل الايكولوجي التقليدي أو الكلاسيكي

حيث نجد بارك مثلا يلخص اهتمام الايكولوجي بدراسة التغير في بحث دراسة تنقلات الناس والصناعات والسلع والتغيرات التي تطرأ على مواقع الأفراد ومهنهم والتعديلات التي تحدث بين حين وأخر في انساق تقسيم العمل القائمة كذلك نجد أن ماكينزي يقرر أن (بناء المجتمع ونموه ها في الحقيقة مؤشرات للمسافة الايكولوجية التي

يفسرها مفهوم (تكاليف الوقت Time-cost concept) أو أنهما استجابة لمسافة التنقلات التي تحدث في إطار الأشخاص والسلع

2-في مجال الجغرافيا

وكما تمثلت المشكلة المحورية في الايكولوجيا البشرية المعاصرة في محاولة فهم كيف ينظم السكان أنفسهم خلال عمليات تكيفهم لبيئة محدودة ومتغيرة باستمرار ، دارت المشكلة الأساسية التي عنيت الجغرافيا المعاصرة وبخاصة الجغرافيا الحضرية بدراستها ، حول كيف ولماذا تعمل العوامل والعمليات المكانية على الإبقاء على البيئة الحضرية أو على تغييرها أحياناٍ؟ وكيف يؤثر البناء المكاني في السلوك البشري ؟

وفي هذا الصدد فهمت البيئة بمعنى النسق الايكولوجي أي كنسق لتفاعل وظيفي لكائنات حية ، مع بيئة فيزيقية وبيولوجية وثقافية ذات تأثير فعال ، وفي هذا الصدد أيضا ، لم تدرس الأنساق الايكولوجية من منظور استياتيكي ثابت لشكلها المكاني أو تمايزها المساحي في ضوء خصائص المكان والموقع والإقليم فحسب بل عولجت هذه الأنساق من منظور التفاعل والتنظيم المكاني ، وبخاصة في ضوء تنميطها وتكوينها المكاني في شكل سلاسل وانحدارات ومراكز وأطراف وحواجز وحدود وما شابه ذلك

كما امتد اهتمام الجغرافيا الحضرية المعاصرة إلى محاولة فهم كيف يسهم السلوك المكاني – أي أنماط السلوك التي تنجم عن التكيف لشروط البيئة أو لتغيرها- في تحديد عمليات الاستخدام المحتمل للمكان (التي تعمل على تدعيم حالة الثبات في البيئة) ، أو في تحديد عمليات تشكيل المكان (التي تؤدي إلى حدوث تغيرات تدريجية في البيئة) أو في عمليات تحويل المكان (التي تؤدي إلى تغير جذري للبيئة) وتوضح هذه الاهتمامات الحديثة للجغرافيا أن ثمة وجه للتقارب والالتقاء بين المدخل الجغرافي والايكولوجي والسوسيولوجي في دراسة المجتمع المحلي الحضري بصفة خاصة .

وفي الأيام الأخيرة نجد أن علماء الجغرافيا يعملون على إيجاد نوع من التكامل بين مفهوم (الإقليم Region) والمفاهيم الايكولوجية الأخرى حتى أن بعضهم من أمثال ديكنسون Dickinson يعتقد أن بالإمكان استخدام الأنساق الايكولوجية كنماذج في الجغرافيا الإقليمية. غير أن محاولة تطبيق أفكار الايكولوجيا ومفاهيمها في مجال البحث الجغرافي ليست بالمحاولة الحديثة

ومع ذلك فقد أدى الخوف من الوقوع في أخطار الحتمية إلى إهمال واضح للمفاهيم الايكولوجية في الجغرافيا لمدة تزيد عن نصف قرن تقريباً حتى جاء زيلنسكي وبعض الجغرافيين المعاصرين ، فاعترفوا بان النسق الايكولوجي هو أكثر اكتشاف العصر الحديث أهمية ، وان محور الاهتمام في الجغرافيا هو دراسة الايكولوجيا البشرية في مجالات متخصصة، وانه من الأهمية بمكان في نظرهم أن ننظر إلى حياة الشعوب والمجتمعات في ضوء علاقاتها ببيئاتها المختلفة كمطلب ضروري لفهم مشكلاتها.

كذلك نجد أن ثمة تيار من الفكر الايكولوجي كان موجودا في الجغرافيا حتى قبل محاولة باروز السابقة وبعدها ، تمثل ذلك في المداخل التي تبناها كل من سيمبل Semple وسايور Sauer ومع ذلك فقد اعتبرت هذه المداخل نوعا من الحتميات البيئوية(بالنسبة لسيمبل) أو الثقافية (بالنسبة لسيور) وسرعان ما وجهت إليها الانتقادات اللاذعة ، مثال ذلك ما ذهب إليه انجلش English من كلا من المدخلين يشتملان على جانب نشط وفعال ، وأخر ساكن

خامل ، في تحليلهما لعلاقة الإنسان بالبيئة : فالبيئويون يرون أن هناك تأثيراً فعالاً ومباشراً من البيئة على الإنسان ، بينما يرى الحتميون الثقافيون اتجاها عكسياً في نفس العلاقة ، أي من الإنسان على البيئة) .

وبغض النظر عن ما وقعت فيه هذه المحاولات من أخطاء ، وبغض النظر عن وجاهة الانتقادات التي وجهت إليها ، فان ما يعنينا هنا أنها قد احتوت على قدر من الاهتمام بتطبيق المدخل الايكولوجي خاصة في تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة وتوضيح علاقة التفاعل بينهما.

اهم التعريفات التي نقدمها هو تعريف ثورنوات ، إذ لم يكن ثورنوات عالما ايكولوجيا ، بل كان احد المشتغلين في مجال الجغرافيا الطبيعية ، ومع ذلك كان تعريفه للايكولوجيا ولا يزال أكثر التعريفات قبولاً لفترة تزيد على الثلاثين سنة ، في تعريفه للايكولوجيا ، فقد استند فيه على مفهوم (المجتمع المحلي) فذهب إلى أن اهتمامها يوجه أساسا نحو تطور المجتمعات الإنسانية ، وعلاقتها المتبادلة بالبيئة الكلية المحيطة بها.

وتعد العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن بمثابة إحياء للمدخل الايكولوجي في مجال البحث الجغرافي ، فقد شهدت ظهور عدد من الأعمال الجغرافية الجادة التي أكدت ضرورة تطبيق المفاهيم الايكولوجية وبخاصة مفهوم النسق الايكولوجي والمجتمع المحلي والتفاعل .. الخ

3- في مجال الدراسات السيكولوجية

تعنى محاولة استعراض تطور استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس في الحقيقة محاول لتأريخ ما حدث في مجال الدراسات السيكولوجية من ثورة ، تمثلت في العمل خارج المعمل بتجاربه الموجهة على السلوك الانساني أي الانتقال من مجال العمل المعملي ، الى مجال الملاحظة المباشرة للسلوك في ظروف عادية طبيعية وغير موجهة او مشروطة .

وتعد دراسات روجر باركر Roger Barker وهربرت رايت Herbert Wright عن اطفال المدينة في (الميدويست Midwest بولاية كنساس Kansas والتي بدات سنة 1947 محاولات رائدة لتطبيق المدخل الايكولوجي في مجال علم النفس وبالتالي نقطة البداية الاولى في هذه الثورة المنهجية كما عرف استخدام المدخل الايكولوجي في هذا المجال باسماء عديدة منها (الايكولوجيا السيكولوجية) او علم النفس البيئوي

الا ان التسمية التي حظيت بالقبول والانتشار كانت تلك التي وضعها باركر وزميله رايت (علم النفس الايكولوجي) حتى ان بعض المشتغلين بالدراسات السيكولوجية يرون ان هذا الفرع الجديد من علم النفس قد نما فقط في اوسكالوزا Oska Loosa حيث يوجد مركز البحوث الميدانية التابع لجامعة كنساس الامريكية

ان اهم ما يميز المدخل المعاصر في علم النفس – على حد تعبير باركر- ذلك التركيز على (تنوعات السلوك الفردي الذي يحدث على نحو طبيعي والسياقات التي تحيط بهذا السلوك احاطة طبيعية) ، كما ان اهم ما يركز عليه التوجيه الايكولوجي في علم النفس هو تحليل مجرى السلوك الطبيعي المتعدد المتغيرات كما يحدث في البيئة على نحو طبيعي غير معملي

هذا في مقابل الاهتمام التقليدي لعلم النفس بالفروق الفردية من خلال تحديد وقياس السلوك الفردي الثابت تحت ظروف ثابتة ومفروضة ، ومع ذلك لم يكن الهدف من استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس الاقلال من اهمية العمل المعملي التجريبي ، بل كان مجرد محاولة للامتداد بالبحث والتحلل خارج حدود المعمل .

وفي هذا الصدد يقرر ويلمز E.P.Willems انه لا يمكن التوصل في علم النفس الى مقياس لمعرفة كيف تتفق نتائجه مع العالم الواقعي او مع تلك البيئة الواقعة خارج حدود المعمل ، دون توجيه ايكولوجي لدراسة السلوك الانساني

وفي نفس الاتجاه ارتاب سيلز S.B.Sells في كفاءة المعالجة العلمية لبعض جوانب السلوك الانساني ، مؤكدا افضلية الملاحظات والتجارب الحقلية ذات المتغيرات المتعددة، على التجربةالمعملية ذات البعد او المتغير الواحد من ناحية، وضرورة استخدام المدخل الايكولوجي لمعرفة تاثير العالم الواقعي على انماط السلوك البشري. ومرة اخرى يؤكد استخدام المدخل الايكولوجي في نطاق الدراسات السيكولوجية

قد يواجه هذا الاستخدام ببعض الصعوبات التي ترتبط بتسجيل السلوك في ظل تعقيدات ظروف البيئة الا انه من الممكن في ضوء استخدام هذا المدخل ان نتوصل على حد تعبير سيلز الى تحديد ما لتاثير المتغيرات البيئوية من دور في تنوع انماط السلوك الذي تفسره ان المشكلة الحقيقية في ما اسماه باركر بعلم النفس الايكولوجي هي تحديد وبحث دور الدوافع غير السيكولوجية في السلوك الانساني ، وهو يقصد بالدوافع غير السيكولوجية البيئة الايكولوجية

وتتحدد هذه البيئة الايكولوجية في نظره من مجموعة الظواهر التي تحدث حدوثا طبيعيا ، والتي تتميز بوقوعها خارج جسم الانسان من ناحية ، وقدرتها على الربط بين افعاله وتصرفاته الجزئية من ناحية ثانية ، ثم بعملها وفقا لقوانين لا تتطابق مع القوانين التي تحكم سلوكياته وتصرفاته الجزئية

وتفسير ذلك ان للظواهر السلوكية اليومية اتجاها للتركيز حول مجموعات من الانشطة والاماكن ، وميلا للتجمع في تجمعات او مجموعات منتظمة ووحدات محددة من البيئة الخارجية ، لذلك نجد الاشخاص – على حد تعبيره- بواجهون ببيئات متعددة البناء والانماط ، كما نجد البيئة تأخذ شكل وحدات مختلفة ومتنوعة هذه الوحدات تمثل في نظره القاعدة السلوكية Behavior setting للأفراد .

وكأي اتجاه او محاولة جديدة ، يواجه استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس صعوبات عدة منها ، غياب النظرية في هذا المجال من التطبيق – أي في علم النفس الايكولوجي- حقا قد نجد بعض المفاهيم المستخدمة ، وبعض المحاولات التي بذلت لتحديدها ، والتي يمكن ان تمدنا ببدايات اولية للتنظير ، الا انها لم تحظى هي ذاتها باتفاق وقبول ، حتى بين المشتغلين في هذا المجال ذاته ولعل من أهم الصعوبات التي تواجه علم النفس الايكولوجي ، اختلاف التفسيرات التي تطرح لنفس المفاهيم وتعارضها أحياناً ،

والمثال الذي نسوقه في هذا الصدد، الاستخدام المختلف لمفهوم (البيئة الفيزيقية والبيئة الايكولوجية) فالبيئة الفيزيقية تعنى عند معظم الايكولوجيين المقومات الفيزيقية للعالم الطبيعي كالتربة والمناخ والتضاريس .. الخ ، بينما تعنى عند علماء النفس الايكولوجيين الحضور او التمثل الفيزيقي للأشياء كالحوائط والكراسي والمناضد والافراد الاخرين

نماذج لأسئلة المحاضرة :

تعتبر الايكولوجيا عند عدد من المفكرين تركيب جامع للعلوم الانسانية

ناقش

تعتبر الايكولوجيا البشرية عند عدد من المفكرين تخصص مطابق للجغرافيا البشرية

ناقش

وجد اعتبار الايكولوجيا البشرية فرعاً من علم الاجتماع قبولاً واسعاً لدى عدد من مفكري علم الاجتماع

ناقش ما قدموه من أدلة

بعض المفكرين يعتقد أن الايكولوجيا تقع في مفترق طرق

ناقش

الايكولوجيا البشرية عند (بيوز)قد تدرس البيئة او قد تهتم بدراسة الانسان لكنها في الغالب تهتم ب

أ- البيئة والوظيفة والكائن

ب- النفس والوظيفة والكائن

ت- السكان والبناء والوظيفة

ث- الاقتصاد والبناء والكائن

المحاضرة الخامسة

الاتجاهات النظرية الاولى للمدخل البيئي

يكشف استعراض تراث علم الاجتماع وتاريخ التفكير الاجتماعي من قبله عن حقيقة هامة تتمثل في أن مفهومات مثل (البيئة) (النضال) (الصراع) (التوازن) (الوضع) (التفاعل) (وسبل العيش) (البناء) (التنظيم) (الموارد) .. الخ – وغيرها من المفهومات التي أصبحت (ايكولوجية) من الدرجة الأولى – كانت كلها أفكاراً محورية شغلت حيزاً كبيرا من اهتمام العلماء والمفكرين سواء كمجالات البحث أو متغيرات التحليل والتفسير

وقد يكفينا إدراك هذه الحقيقة لتأكيد الصلة الوثيقة بين الايكولوجيا وعلم الاجتماع ، او لتبرير محاولتنا هذه لتلمس المصادر السوسيولوجية لتطوير المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع

وبطبيعة الحال ، قد لا يتسع المقام في محاولتنا هذه لتوضيح كل جوانب هذه الصلة ، أو تحديد تلك المصادر مجتمعة

فتراث علم الاجتماع واسع الجوانب ومتعدد الاتجاهات ، كما أن ما خلفته اتجاهات التفكير الاجتماعي من تراث أكثر اتساعاً وتشعباً ، ولا يخلو أي جانب من جوانب هذا التراث المتراكم – كما ذكرت- من اهتمام أو فكر أو تحليل ايكولوجي بمعنى أو بأخر

لذلك نقتصر في محاولتنا هذه على تلمس المصادر الاجتماعية للمدخل الايكولوجي في كتابات وأعمال عدد من مشاهير المفكرين الاجتماعيين ورواد علم الاجتماع ممن كان لفكرهم وكتاباتهم أثراً واضحاً ليس فقط في تطوير المدخل الايكولوجي بل في تحديد اتجاهات التطور بالنسبة لعلم الاجتماع ذاته

1) موتيسكيو (1689-1755) :

يمثل مونتسكيو Baron De Montesquieu اتجاها نظرياً في تاريخ الفكر الاجتماعي له جذوره البعيدة التي قد تمتد إلى هيبوقراط وأرسطو وبودان وغيرهم ، ممن افردوا للعوامل الطبيعية – وبخاصة المناخ- أهمية كبرى في التأثير على المجتمع الإنساني والحياة الاجتماعية

كما يمثل في نظرنا مصدراً من المصادر المبكرة والهامة في الايكولوجيا الاجتماعية

لقد كان هدف مونتسكيو في كتابه الشهير (روح القانون) 1748 The Spirit of Laws أن يوضح المبادئ الأساسية للتشريع ، واستبان له منذ البداية أن هناك توافقاً ملحوظاً وواضحاً بين النظم والتشريعات وبين طابع الشعوب التي تطبقها إلى جانب التفاعل المنسجم بين مختلف النظم والقوانين ووسائل الضبط الاجتماعي التي تستخدمها كل جماعة ،

ومن ثم شرع مونتسكيو في البحث عن العوامل المؤدية إلى تنوع الخصائص الثقافية والفيزيقية بين شعوب العالم ، فتوصل إلى أن أهم عوامل التنوع الثقافي وتباين الأنماط البشرية يتمثل في المؤثرات الجغرافية وبخاصة ظروف المناخ ،

وانتهى إلى أن بحث هذه العوامل وتحليل آثارها يمكن من فهم السمات المختلفة والمتمايزة لشعوب العالم ، كما يمكن من تحديد القوانين والتنظيمات المناسبة لكل نمط من الأنماط البشرية المتنوعة

وبغض النظر عما تنطوي عليه نظرة مونتسكيو من حتمية جغرافية متطرفة في كثير من جوانبها إلا أنها بتركيزها على خصائص البيئة والعوامل البيئوية كمتغير تفسيري ، كانت قد مست قضية لا تزال تثير قدرا من الجدل في الفكر الاجتماعي والايكولوجي على حد سواء

كما أنها مهدت في الوقت ذاته لنظرة أخرى كانت – ولا تزال – سمة بارزة من سمات المنظور الايكولوجي هي اعتبار المكان وخصائصه عاملاً أساسيا في التنوع الثقافي والاجتماعي أو بصفة خاصة ، الاهتمام بدراسة التوزيعات المكانية للسمات الثقافية والظواهر والنظم الاجتماعية

كذلك فانه بغض النظر أيضا عن اختلاف مستوى التحليل بين نظرة مونتسكيو وتلك النظرة الايكولوجية التقليدية – والتي ركزت على المجتمع المحلي في مقابل المجتمع بالمعنى العام والواسع – إلا أن تأكيد مونتسكيو لأهمية العوامل الجغرافية في تشكيل النظم الاجتماعية كان في نظر الكثيرين – مثل بارنز- دافعا لتطوير الانثروبوجغرافيا

كما يعد في نظرنا من المصادر المبكرة للايكولوجيا البشرية بفرعيها الثقافي والاجتماعي ، فلقد تابع العديد من الفلاسفة الاجتماعيين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والايكولوجيا نظرة مونتسكيو بدرجات متفاوتة من الحتمية

وكثيرون ممن اكدوا التأثير المتنوع للظروف الجغرافية والطبيعية على سلوك الانسان وسيكولوجيته وعلى التنظيم الاجتماعي والعمليات الاجتماعية والايكولوجية.

2) فردريك لبلاي 1806-1882:

أتيحت الفرصة أمام لبلاي F.Leplay الذي عمل مهندساً استشارياً لبعض شركات التعدين ، أن يتعرف وان يدرس ظروف الحياة التي تعيشها الطبقات العاملة في بيئات مختلفة ، وان يتلمس عن قرب مختلف المشاكل التي تواجه هذه الفئة الاجتماعية وبخلفية الباحث الطبيعي راح لبلاي يدرس المشاكل الاجتماعية بنفس المناهج والطرق المستخدمة في العلوم الطبيعية من ملاحظة وتسجيل للوقائع إلى قياس وتحليل كمي عددي ، وقد تجلى هذا الأسلوب في دراسته الشهيرة والجادة عن أحوال الأسرة وميزانيتها وعن الإصلاح الاجتماعي وتنظيم العمل .. الخ

ولقد تحدد الإطار التصوري لدراسات لبلاي في النظرة إلى المجتمع الإنساني كنسق من العلاقات تمثل فيه الأسرة وحدة اجتماعية أساسية باعتبارها ابسط شكل من أشكال التجمعات الإنسانية

كما تحدد في النظر إلى الأسرة على أنها كيان مستقل بذاته ، بل في ارتباطها ببيئة تحدد شكلها وأنماط سلوكها وتأثرها الدائم والمستمر بأشكال النشاط الاقتصادي والتنظيم المعيشي السائد ، ذلك أن من أهم وظائف الأسرة ، في نظره الحصول على أسباب العيش وتوفير سبله لأعضائها عن طريق (العمل) كما أن النمط المعيشي في نظره ، يتحدد من خلال المكان وخصائصه وموارده ، أي من خلال الظروف الطبيعية والبيئة المحيطة .

ومن هنا استندت تحليلات لبلاي لما جمعه من ملاحظات على ثلاثة مقولات أو أبعاد أساسية هي

(المكان) (الناس) (العمل) ومن هنا ذاعت شهرة لبلاي كمفكر اجتماعي لتأكيده على هذا الثالوث (الاجتماعي) في مقابل الثالوث الحيوي الايكولوجي

(البيئة- الوظيفة- الكائن العضوي)

ونستطيع أن نتلمس الجانب الايكولوجي في فكر لبلاي في اهتمامه بوضع عدد من التعميمات التي تدور حول تأثير البيئة الطبيعية والجغرافيا (المكان) على الجوانب المختلفة للحياة والتنظيم الاجتماعي.

حقاً لقد كان هذا التأثير أمراً معروفا ومعترفاً به حتى قبل لبلاي ، ألا أن الفضل يرجع لدراساته الجادة في أنها أثرت في معرفتنا بهذا المجال وفي أنها أوضحت مظاهر هذا التأثير ووسائله ، خاصة فيما يتعلق بارتباط المكان بالعمليات الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي

أن السبب الأساسي لتنوع شعوب وسلالات العالم يرجع في نظره إلى المكان الذي انحدرت منه ، أي إلى البيئة التي تخلق ، على حد تعبيره ، كل من السلالة والنمط الاجتماعي

حتى أن أي تغير يطرأ على المكان والبيئة يصاحب بالضرورة بتغيرات في خصائص السلالة وفي توزيع الأنماط البشرية الاجتماعية وقد دفع هذا الموقف بلبلاي ورفاقه إلى وضع عدد من التعميمات والارتباطات بين المكان ومختلف الخصائص المميزة للتنظيم الاجتماعي من أهمها ارتباط المكان بأشكال العمل والملكية ، وبنموذج الأسرة ، وبالمنظمات والتنظيمات التي تقوي الأسرة حجما ووظيفة ، وبعدد من العمليات والظواهر الاجتماعية كالهجرة والعقيدة والحروب.. الخ

لذلك كانت دراسات لبلاي علامة بارزة في تاريخ اهتمام عالم الاجتماع الايكولوجي بصفة خاصة بالخصائص المكانية ، كمتغير مستقل ، بصدد شرح وتفسير العديد من المسائل والموضوعات ذات الطابع الاجتماعي البحث ، وبالتالي دفعت إلى ما طور فيما بعد من دراسات اهتمت بالتوزيع المكاني للظواهر الاجتماعية كأهم ما يجب أن تعنى به الدراسات الايكولوجية والسوسيولوجية بوجه عام .

3) هربرت سبنسر (1820-1903) :-

نستطيع أن نحدد أهم مقومات ما سمي فيما بعد بالمدخل الايكولوجي في تفكير سبنسر في ثلاثة أفكار أساسية هي : فكرة أن المجتمع يشكل نسقاً ذو انتظام ذاتي وفكرة تمايز الوظيفة ثم فكرة التطور.

وتلعب المماثلة البيولوجية ، أي مماثلة المجتمع بالكائن الحي ، وبالتالي محاولة تأكيداً أن ما يصدق على الظواهر البيولوجية ينسحب على الظواهر الاجتماعية ، دوراً أساسياً في بلورة هذه الأفكار الثلاثة السابقة

فالمجتمع الإنساني ، في نظر سبنسر ينتظم في نسق يماثل تماماً الكائن العضوي فمراحل الحياة بالنسبة لكل منهما واحدة (نمو، ونضج، وتدهور أو انحلال) ،

كما أن كلاهما يتميز عن المادة غير العضوية بالنمو الذي يمكن ملاحظته خلال مراحل وجوده (فحينما ينمو الطفل ليصبح رجلا ، كذلك ينمو المجتمع المحلى الصغير ليصبح منطقة متروبوليته كبرى ، وتنمو الدولة لتغدو إمبراطورية)

أضف إلى ذلك ، أن نمو كل من المجتمع والكائن الحي يعني زيادة في تعقيد البناء ، الذي يرتبط بدوره بتمايز مضطرد لوظائف أجزائه ومقوماته (فتعدد الأعضاء وتعقدها في الكائن الحي ، وتعدد التنظيمات وتعقدها في المجتمع يصاحب بالضرورة بتخصص وتمايز وظيفي لكل من هذه الأعضاء والتنظيمات) ،

وبغض النظر عما ذكره سبنسر من اختلافات بين المجتمع والكائن الحي ، إلا أن فكرة المماثلة هذه تثير في الحقيقة فكرة (النسق) التي تشير بدورها إلى أي كيان يمكن تصوره على انه كل يتركب من أجزاء شبه مستقلة تتساند فيما بينها على نحو وظيفي متبادل

وهذا ما يصدق على كل من المجتمع والكائن الحي ، كما أن النسق بهذا المعنى يشكل – كما رأينا- فكرة محورية ذات أهمية وتاريخ طويل في التحليل الايكولوجي .

أن المجتمعات الإنسانية ، في نظر سبنسر، عبارة عن جموع (فوق عضوية) يقوم بينها ما نسميه (بتوازن الطاقة) تماما كما هو الحال في النسق الايكولوجي والطبيعي للكائنات الحية الدقيقة ،

ويأخذ هذا التوازن ، سواء بين المجتمعات بعضها وبعض ، أو بينها وبين بيئاتها ، شكل النضال من اجل البقاء والوجود ، ومن ثم يصبح الصراع نشاطاً مألوفا في المجتمعات الأكثر قربا وتأثراً في البيئة الطبيعية

وفي خضم هذا الصراع ، يظهر الخوف من (الأحياء) ليمثل أولى جذور الضبط السياسي ، كما يظهر الخوف من (الأموات) ليمثل أولى جذور الضبط الديني ،

الأمر الذي يفرض طابعا(عسكريا) على الحياة الاجتماعية بحيث يوضع التنظيم الاجتماعي وتحدد أنماط السلوك في مواءمة مع حياة الحرب وهذا هو حال المجتمعات البدائية أو الأقل تطوراً ،

غير انه سرعان ما يدفع هذا الموقف بالجماعات الصغيرة إلى التوحد والترابط في جماعات اكبر فاكبر ، مما يحقق في النهاية تكاملا اجتماعيا يوسع من القاعدة التي تعمل وتتحرك فيها الجموع المتزايدة،

وهذا يضفي على الحياة الاجتماعية طابعاً أخر، يضع السلوك والتنظيم الاجتماعي في مواءمة مع حياة السلام والمحبة والتعاطف ، فيتلاشى القهر والجمعية ويحل محلها الفردية والطوعية كما تزداد مرونة التنظيم الاجتماعي دون تقويض أو تخريب للتماسك الاجتماعي.

وعلى هذا النحو السابق يكشف تاريخ كل من المجتمع والكائن العضوي عن عملية تطورية تتضمن زيادة في الحجم والتعقيد

لذلك كانت الأشكال الأولية للحياة العضوية ذات البناء الأكثر بساطة (أحادية الخلية) تشبه تماماً التجمعات الإنسانية البسيطة والمنعزلة ،

بينما تكشف أكثر أشكال الحياة العضوية تطوراً عن تمايز وتعقد في البناء والوظائف تماثل تماما الأشكال الأكثر حداثة وتطوراً للحياة الاجتماعية ،

ولما كان الكائن الإنساني هو أخر الأشكال التي وصلت إليها عملية التطور العضوية ، فانه يمكن النظر إلى المجتمع الصناعي الحديث على انه أخر شكل للعملية التطورية فوق العضوية ، فالتماثل واضح وقوي بين هذين الشكلين سواء في التركيب البنائي والوظيفي ، أو في الاتجاه العام للنمو والتطور ،

ويعتمد انتقال المجتمع من المرحلة البدائية البسيطة (العسكرية) ، إلى الحالة المتقدمة والمعقدة (الصناعية) على مدى توازن الطاقة بين المجتمع والمجتمعات المجاورة، وبينه وبين البيئة الطبيعية.

4) ليستر وارد (1841-1913) :

يعتبر كتاب ليستر وارد L.Ward (علم الاجتماع البحت 1903 (Pure Sociology ، من الأعمال الرائدة في الايكولوجيا وعلم الاجتماع سواء بسواء ، فقد حاول فيه أن يمتد بالمفهوم البيولوجي (للتكافل) ليجعل منه مبدأ أساسي للعمل التعاوني المشترك بين أفراد المجتمع الإنساني ، لذلك فهو يعد في نظر الكثيرين واحداً من الرواد الأوائل لما سمى من بعده(بالايكولوجيا الاجتماعية)

يمثل (الانجاز الاجتماعي Social Achievement) – في نظر وارد- الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع ، فهو لا يعني بدراسة ماهية الأفراد وطبيعتهم ، قدر عنايته بدراسة أعمالهم وأفعالهم

أي انه لا يهتم بدراسة (البناء) بل يهتم أساساً بدراسة(الوظيفة)

وفي كتابه (علم الاجتماع البحت أو النظري) ميز وارد في النسق الاجتماعي بين النشأة والتطور التلقائي للبناءات والوظائف الاجتماعية وبين العمل الإصلاحي المقصود والواعي

أما مناقشته للموضوع الأول ، فقد تناولت عددا من الموضوعات ذات الدلالة الايكولوجية الهامة كالتركيب الخلاق ، وقانون الاقتصاد ، والأصل البيولوجي للعقل ووظائفه ، والاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية ، وتصنيف القوى الاجتماعية.. الخ .

وبالتركيز على الاستاتيكا الاجتماعية نجدها – في نظر وارد – ترتبط بالتوازن الاجتماعي وتوطيد النظام الاجتماعي العام ، أي بتكوين البناءات الاجتماعية ،

ويسير نمو النظام الاجتماع العام في عملية مستمرة للنضال من اجل البناء ،أكثر منها نضالاً من اجل البقاء أو الوجود ،وخلال هذه العملية ، يكون العمل الاجتماعي التعاوني أكثر المبادئ أهمية وضرورة:

فهو القوة التي توحد كل الأبنية وتفسر كل التنظيمات وعن طريقه تشترك القوى المتنافرة في الطبيعة وتتعاون في شكل تعاقب مضطرد لعمليات التصادم، فالصراع ،فالتنافر ، فالتعارض، فالتنافس ، فالتفاعل فالتقارب، فالمشاركة فالتعاون فالتنظيم..

وفي عملية تطور النظام الاجتماعي يحدث العمل الاجتماعي المشترك من خلال عملية أخرى أسماها ورانر(بالانقسام الفتيلي Karyokinesis يقصد بها مماثلة اجتماعية للتخصيب في المجال الحيوي ، تظهر ماثلة في عمليات الاحتكاك والدمج والتمثيل التي تقوم بين الجماعات الاجتماعية المتنافرة ، والتي تحقق في النهاية الجمع المتجانس والمنسجم.

اما الديناميكا الاجتماعية ، فترتبط بالتقدم وبتغيرات بناء المجتمع وفي هذا الصدد يذكر وارد ثلاثة مبادئ أساسية هي اختلاف الإمكانية والجهد والتجديد ، والنزوع

أما المبدأ الأول فيشير إلى التقدم الذي ينتج عن اختلاف العناصر المتنافرة كما يحدث مثلا في عمليات التمثيل والدمج الثقافي .

أما التجديد وهو يمثل عنده مماثلة اجتماعية للشذوذ أو التغير المفاجئ في المجال العضوي ، فهو نتائج للوفرة والحيوية الروحية والنفسية المؤدية إلى التقدم ،

ويعد النزوع جهداً اجتماعياً لتطبيق واستخدام الطاقة الاجتماعية اللازمة لتحقيق الأهداف وانجازها ، فالجهد الذي يبذله الفرد لإشباع حاجاته والتوافق مع بيئته يعتبر في نظره أهم عوامل التقدم.

وفي مناقشته للعمل الإصلاح المقصود بدأ وارد بقضية أساسية مؤداها (أن النمو لاجتماعي يقتضي ضبطاً وتوجيهاً للطاقة) وذهب إلى أن هناك طريقتين لتحقيق هذا الضبط ،

تتمثل الأولى في الضبط غير الواعي الذي تقوم به الطبيعة والذي يتمثل في النشأة والنمو التلقائي

أما الثانية فهي الضبط الواعي من جانب العقل ممثلا في الإصلاح المقصود وبطبيعة الحال تسمو الطريقة الثانية عن سابقتها

إذا عادة ما تسرف الطبيعة في إيجاد كميات متراكمة من المادة الخام تتركها وشأنها لتصلح من نفسها ببطء شديد خلال عملية الانتخاب الطبيعي

هذا في الوقت الذي يتميز فيه العقل بالرشاد والاقتصاد والبحث والتنبؤ والتوفيق بين الغايات والوسائل

أن هذه العملية التي بمقتضاها يتم ضبط القوى الديناميكية في الطبيعة والمجتمع عن طريق توافق الغايات والوسائل ، تمثل جوهر الإصلاح الواعي المتعمد

وفي هذا الصدد يذكر وارد أن تطوير الدولة كان أكثر الخطوات التي خطاها العقل والمجتمع أهمية في تاريخ البشرية

ومع ذلك نجده يقرر أن المجتمع لا يستطيع أن يحقق هذا الضبط الكامل للعمليات الاجتماعية ، ما لم يتمكن من تحصيل قدر كافي من المعرفة الدقيقة بقوى الطبيعة وبالقوى الاجتماعية في نفس الوقت

وقد يبدو لنا مما سبق أن وارد قد جسد بأفكاره وتصوراته السابقة ذلك التوجيه البيولوجي المبكر للفكر الاجتماعي بتأثير من كتابات داروين وأفكاره المعروفة

إلا انه يبدو لنا أيضا أن تأثير وارد كان أكثر وضوحاً في رواد المدرسة الايكولوجية في علم الاجتماع ، أو في المدخل الايكولوجي بصورته الكلاسيكية

ولعل من أهم مظاهر هذه التأثير أن بارك وهو احد الأقطاب المؤسسين لهذا المدخل قدم ثنائية مماثلة لثنائية وارد قصد بها التمييز بين مستوى (حيوي) وآخر (ثقافي) عند تحليل التنظيم الاجتماعي ، تلك الثنائية التي كانت أهم دعائم المدخل الايكولوجي المبكر ، والتي واجهت انتقادات متلاحقة ساعدت بدورها على تعميق الطابع السوسيولوجي للمدخل الايكولوجي في الوقت الحاضر

5) باترك جيدز (1854-1932):

تأثر باتريك جيدز Patrick Geddes بأفكار هايكل وهكسلي البيبو ايكولوجية ، الا انه تجاوز اهتمامها بالدراسات المورفولوجية ، الي تؤكد على ما هو جامد وميكانيكي الى دراسة الكائنات الحية التي تتفاعل مع بعضها البعض ومع بيئاتها المختلفة

كذلك تاثر جيدز بأفكار لبلاي ودراساته فاخذ بمعادلته الشهيرة (المكان – العمل – الاسرة) التي ناظرت الثالوث البيوأيكولوجي (البيئة- الوظيفة- الكائن العضوي)

وعلى الرغم من اعتراضه على المقارنات الاستعمارية بين المجتمع والكائن الحي ، والتي قدمها سبنسر وتلاميذه ، الا انه نظر الى الحياة الاجتماعية في الانسان على انها شيئاً متصلاً ومستمراً مع حياة الكائنات الحية الاخرى لذلك نجده يترجم اطراف الثالوث الايكولوجي الى مفهوم اوسع من مفهوم لبلاي ممثلا في (المكان – العمل – الناس)

ولقد ادرك جيدز ما لمفهوم (الطاقة) الذي احتل مكانة هامة في العلوم الطبيعية ابان العقد الاخير من القرن التاسع عشر – من اهمية وحاول ان يتتبع تطبيقاته ونتائجه على المجتمع الانساني وفي هذا الصدد ، ذهب الى ان الجماعة الانسانية لا تتأثر فحسب ببيئتها؟، بل تتعلم كيف تسيطر عليها من خلال تحسين ادواتها ومعداتها التي تخلق مخزوناً هائلاً من الطاقة الحرة ، التي تستثمر بدورها في مجال الفكر والفن والترويج والانتاج ، كما تتعلم كيف تنتقد قوانينها وعاداتها وتعدل من تراثها عن طريق الانتخاب (الاختيار) الواعي المقصود

واذا كان مفهوم (الحتمية) يطبق بنجاح على الحياة في ادنى مستوياتها فان مفهوم (الحرية الخلاقة) يطبق وبنفس القدر من النجاح على الحياة في اعلى مستوياتها

وهكذا رفض جيدز ثنائية (الحتمية والادارة الحرة) في مجال علم الاجتماع ، كما رفضها من قبل في مجال البيولوجيا ، ان الحياة في نظره ليست مجرد (بيئة) تؤثر على كائن حي سلبي وخامل بل هي ايضا مسالة (كائن حي) يؤثر في البيئة ويعدلها.

وفي مجال ما عرف فيما بعد باسم (الايكولوجيا الحضرية) كان لجيدز بعض الاسهامات الهامة ، لقد ادرك الباحث دور المدينة في تطور واستمرار التراث الاجتماعي ، حقا لقد سبقه الى ذلك فوستيل كولانج الا ان الفضل يرجع الى جيدز في تعميم وتعميق هذه النظرة والسير بها خطوات ابعد

كما ان ما قام به من مسوح محلية واقليمية على المدينة (ادنبره) قد فاقت في اهميتها واسهاماتها لعلم الاجتماع الحضري والايكولوجيا الحضرية ما قدمته مسوح تشارلزبوث في مدينة لندن

ويرجع الفضل لجيدز في تطوير عدد من الاجراءات المنهجية للتخطيط الاجتماعي والحضري ، التي افادت كثيراً في الدراسات الايكولوجية فيما بعد ، كدراسات ماكيرجي Mukerjee وداوسون Dawson وغيرهم

ولعل من اهم ما يجب ذكره في هذا الصدد ان مفهوم (الاقليم Region) - الذي طوره علماء الجغرافيا البشرية في فرنسا وعلماء الايكولوجيا فيما بعد في امريكا – كان فكرة محورية في تفكير جيدز

لقد اوضح جيدز كيف ان هذا المفهوم يستحضر معنى الطبيعة كشيء او امر (مفروض) ، ومعنى الطبيعة التي (تعدل) باستمرار خلال الفعل الانساني ،

كما كان له بعض الاسهامات التطبيقية في مجال الايكولوجيا الحضرية من ابرزها اعادة تخطيط العديد من الاحياء المتخلفة في مدينة ادنبره

وتخطيطه وتنفيذه للأكثر من خمسين مسحاً على مدن الهند وفلسطين ، واشرافه على تخطيط جامعة اورشليم ومبانيها .. الخ ،

ولقد كان لأعماله النظرية والتطبيقية اثراً واضحا في تطوير الاسس النظرية والمنهجية للدراسات الايكولوجية ، التي اهتمت بصفة خاصة (بالتخطيط الاقليمي) و(الاقليمية) و(تطوير المدن) والتي شكلت واحدا من الاتجاهات البارزة في البحث الايكولوجي المعاصر

6) اميل دور كايم (1858-1917) :

لم يكن دور كايم- شأنه في ذلك شأن سبنسر- عالماً ايكولوجيا اذ لم تكن وجهة النظر الايكولوجية قد تطورت بعد في مجال العلوم الانسانية ، ولكنه اطلع بطبيعة الحال على كتابات هايكل ، الرائد الاول لايكولوجيا النبات ومع ذلك نستطيع ان نتلمس بعض الجوانب الهامة للمدخل الايكولوجي لدراسة المجتمع ، في عدد من اعماله المشهورة بل وحتى في تصوره العالم لعلم الاجتماع .

لقد اعتبر دوركايم (المورفولوجيا الاجتماعية) احد الفروع الاساسية التي ينقسم اليها العلم ثم قسمه الى مبحثين رئيسيين هما : دراسة الاساس البيئي للتنظيم الاجتماع من ناحية ، ودراسة الظواهر السكانية كالكثافة والحجم والتوزيع المكاني من ناحية اخرى ، وكان هذان المبحثان اكثر الاهتمامات السوسيولوجية تطابقا مع الاهتمام الايكولوجي فيما بعد .

يعد العمل الاساسي والهام الذي قام به دوركايم في كتابه (تقسيم العمل الاجتماعي) والذي نشر لأول مرة سنة 1893 ، اهم ما يوضح اسهاماته النظرية التي تضمنت كثيراً من المصادر السوسيولوجية المبكرة للمدخل الايكولوجي

وبخاصة اذا ركزنا على الجزء الثاني من الكتاب والذي عالج فيه اسباب تقسيم العمل ، وانطوى في تحليله المورفولوجي على افكار وقضايا واهتمامات كانت لها متضمناتها وانعكاساتها الهامة في المدخل الايكولوجي المعاصر.

في الجزء الثاني من كتابه (تقسيم العمل) حاول دوركايم ان يفسر التمايز الذي اخذ يتزايد وبوضوح في المجتمع الغربي ، حتى انه جعل العنوان الفرعي للكتاب (دراسة في تنظيم المجتمعات المتقدمة)

والحقيقة لقد شغلت ظاهرة تقسيم العمل اهتمام المفكرين والباحثين قبل دوركايم بفترة طويلة

حيث اشار ادم سميث الى الظاهرة على انها مصدرا اساسيا (لثروات الشعوب

وحيث سبق لأوجست كونت معالجة الموضوع بقدر من العمق مناقشاً التمايز كظاهر اجتماعية عامة ،

كما بحث تونيز وزيمل نفس القضية فيما نشراه من اعمال قبل دوركايم بفترة قصيرة

وعلى اية حال كانت وجهة النظر التي سادت الدوائر الفكرية وقت شروع دوركايم اعداد مؤلفه ، عبارة عن مزيد من التفسيرات التطورية والنفعية ، تمثلت في اعمال سبنسر ، ومن ثم اعتبر تحليل دوركايم في معظم جوانبه على انه رد فعل مباشر لأفكار سبنسر .

يبدأ دوركايم تحليله – في الكتاب الأول – بالتمييز بين شكلين للتنظيم :

: شكل آلي يصف نموذج غير متمايز للتنظيم يختص بالجموع المنعزلة والصغيرة التي لا يمارس فيها إلا قدراً ضئيلا من الضبط والسيطرة على البيئة المحلية ،

ويكون التجانس والمماثلة أساس الوحدة الاجتماعية ، في الوقت الذي يكون فيه التمايز في أدنى مستوياته ، وحيث تتماسك الفئات والشرائح الاجتماعية عن طريق ما هو عام ومشاع ، وحيث يوفر التماثل والتشابه تدعيماً متبادلاً للأفراد ، فالوحدة إذن عبارة عن تماسك (إلي ميكانيكي) يستند على التجانس فقط .

وفي مقابل هذا النموذج يذكر دوركايم شكلا أخر للتنظيم هو (النموذج العضوي) يصف به الترتيبات البنائية التي سادت في عصره وتميزت بدرجة عالية من التعقيد والتمايز ويقوم هذا النموذج على أساس الاعتماد المتبادل والأكثر تعقيدا للوحدات المتمايزة ،

فكأن التخصص وتقسيم العمل هنا هو السمات الأساسية للمجتمع ولا يقتصر على التمايز المهني بين الأفراد والجماعات بل قد يتسع هذا التخصص ليستوعب مجتمعات بأسرها ، ونتيجة لذلك تبطل (الانقسامية) بين المجتمعات والفئات الاجتماعية التي سادت النموذج الآلي كما تقل درجات العزلة والانفصال بين الوحدات المتمايزة.

ويشرع دوركايم بعد ذلك في شرح الظروف التي يستبدل من خلالها الشكل الآلي للتنظيم بالشكل العضوي

وفي هذا الصدد نظر إلى التغير الذي طرأ على التنظيم الاجتماعي ، كما لو كان يشتمل على نوع من التعاقب التطوري متفقا في ذلك مع وجهة النظر التطورية السائدة في عصره

ولكنه انتقد وبشدة وجهة النظر النفعية التي فسرت التمايز كنتاج لرغبة عقلانية لدى الإنسان لان يزيد من رفاهيته وسعادته ، لقد رفض دوركايم التفسيرات الفردية والسيكولوجية للظواهر الاجتماعية وتحول مباشرة إلى تصور المجتمع ككيان قائم بذاته ،

ثم يحول دوركايم جزءاً من اهتمامه بعد ذلك ، للجانب التطوري في نظرية سبنسر : فقد تصور سبنسر – كما قدمنا – انه مع زيادة المجتمع حجما، يزداد البناء تعقيداً والوظيفة تمايزاً

وذهب إلى أن هذا المبدأ يمثل خاصية مميزة للكيانات الاجتماعية ، كما هو خاصية ميزة للكائنات العضوية ، وهكذا تقلصت نظرية سبنسر عن التمايز لتصبح مجرد وصف يستند على حجم السكان ويربط بين الحجم وتمايز الوظيفة ،

ومع اعتراف دوركايم بأهمية الزيادة السكانية في إيجاد التمايز الوظيفي ، إلا انه رأى في حجم السكان عاملا أو سبباً ضرورياً ولكنه غير كافي لتفسير التمايز ،

وكان دليله في ذلك الإشارة إلى بعض الأمثلة الشاذة ، التي كشفت عن مناطق آهله بالسكان (في روسيا والصين) لا تتميز بدرجة عالية من التمايز ، بقدر ما تميزت بارتفاع معدلات التجانس وزيادة سيطرة التضامن الآلي ،

ثم ينتهي إلى أن التمايز وتقسيم العمل يزيدان بزيادة معدلات التفاعل الاجتماعي ، أو ما اسماه بالكثافة الديناميكية

التي هي نتاج مباشر للتغيرات التكنولوجية التي تسهل عمليات الاتصال والتبادل ، وان أكثر أشكال التفاعل إنتاجا للتمايز هي المنافسة التي تعد في نظره – متأثرا بالفكر الداروينى- الميكانيزم الحيوي لهذا التفاعل.

ومن وجهة النظر الايكولوجية تمثل الإسهام الأكبر لدوركايم في تأكيده لأهمية التقدم التكنولوجي في تطوير الأنساق المعقدة والمتقنة لتقسيم العمل ،

فقد أشار وبوضوح إلى تأثير كفاءة وسائل الاتصال في الربط بين الأنشطة المتمايزة وظيفياً والمنفصلة مكانياً مركزا بصفة خاصة على حالات التمايز الإقليمي أو المكاني التي ترتبط بتمايز الوظائف وتخصصها ،

أن تقسيم العمل – على نحو ما تصوره دوركايم – يقدم إطارا لدراسة احد الجوانب الهامة للتنظيم الاجتماعي ، أي درجة التمايز البنائي ، يمكن أن يطبق في التحليل الاستاتيكي والديناميكي للمجتمع .

وفضلا عن ذلك تفيد نظريته الموروفولوجية كثيراً في دراسة وتحليل مشكلة التمايز البنائي للجموع الإنسانية ذات البعد أو الأساس المكاني ، أي التمايز البنائي والوظيفي للمجتمعات المحلية كأهم ما يعنى به الباحث الايكولوجي .

مما سبق يتضح لنا انه ليس من قبيل المبالغة أن قلنا أن الفكر الدوركايمي قد شكل الإطار العام للايكولوجيا الاجتماعية منذ بداية ظهورها على يد بارك وزملائه من مدرسة شيكاغو

ففي مقالة هامة لبارك بعنوان (المجتمع المحلي الحضري كنمط مكاني ونظام أخلاقي) سنة 1925، حدد بارك موضوع الايكولوجيا البشرية فيما اسماه دوركايم ومدرسته بالجانب المورفولوجي للمجتمع

وفي كثير من كتاباته استخدم بارك مفهوم المنافسة على نحو قريب الصلة باستخدام دوركايم له

فعلى سبيل المثال يقرر بارك(أن المنافسة تحدد التوزيع المكاني والمهني للسكان ، وان تقسيم العمل والاعتماد الاقتصادي المنظم ، والواسع النطاق بين الأفراد والجماعات كخاصية مميزة للحياة الحديثة كان نتاجا مباشرا للمنافسة)

لذلك كان من الطبيعي أن يتفق بارك مع دوركايم في النظرة إلى البناء كما لو كان ناتجا عن المنافسة في سياق القدرة ولو انه – أي بارك- لم يكن أكثر تعمقا من دوركايم في تفسيره للعملية ككل ولأسبابها.

وبالمثل يلاحظ أن لدوركايم فضل السبق فيما قدمه ماكينزي من تصورات ايكولوجية فيما يتعلق بظهور (المجتمعات المحلية المتروبوليتية)

لقد افرد دوركايم – كما رأينا – عناية خاصة لتأكيد دور التقدم التكنولوجي في مجال المواصلات والاتصال في القضاء على العزلة والانقسام الاجتماعي

ويأتي ماكينزي بعد ذلك فيتخذ من نفس التصور تفسيرا ايكولوجيا لظهور المتروبوليس حين أشار إلى أن المجتمعات المحلية التي ميزت بعزلتها وتميزها المكاني ، أصبحت اليوم على صلة وثيقة ومتبادلة مع بعضها البعض من خلال التقدم الذي طرأ على وسائل الاتصال ،

وان أهم ما يميز النمو المتروبوليتي للمجتمعات ، تطوير نسق معقد من تقسيم العمل مكانياً بين مجتمعات كانت ذات اكتفاء ذاتي فيما مضى ،

ثم أخيراً عندما نظر إلى العملية ككل كما لو كانت نتاجاً للتقدم التكنولوجي الهائل فوصف المجتمع المتروبوليتي بأنه

(وليد الإمكانات والتسهيلات المتطورة لوسائل الاتصال)

وعلى الرغم من أن تحليل دوركايم كان قد تحدد على مستوى المجتمع مركزا على التمايز المهني استخدم ماكينزي نموذجاً مماثلا لتحليل التمايز المكاني على مستوى المجتمع المحلي والمستوى الإقليمي ،

حيث اعتبر عمليتي التمايز كما لو كانا عملية واحدة ، موضحاً أن الوحدات التي غدت على احتكاك واتصال وثيق ببعضها البعض عن طريق تقدم وسائل الاتصال أصبحت وحدات متنافسة كما أصبح حل هذا الموقف التنافسي في نظره على المستوى المحلي والإقليمي أكثر تأثرا بالتمايز المكاني .

ولقد كان من الطبيعي أن يهتم علماء الايكولوجيا المعاصرون بنفس المشكلة التي عني دوركايم بمعالجتها في الجزء الثاني من كتابه تقسيم العمل

فكما حاول دوركايم أن يفسر احد مظاهر البناء الاجتماعي ممثلا في التمايز اهتم الايكولوجيون في وقت لاحق من تطور الايكولوجيا الاجتماعية بتحديد العوامل التي تؤدي إلى تنوعات البناء :

: فعلى سبيل المثال ، حدد هارلي الايكولوجيا البشري بأنها (دراسة شكل المجتمع المحلي وتطوره) بل تجده يستخدم نفس عبارات دوركايم فيقرر أن أهم ما يعنى به الايكولوجي (وصف وتفسير مورفولوجيا الحياة الجمعية في جوانبها الاستاتيكية والديناميكية)

وبالمثل نجد جيمس كوين J.Quinn يعلن عن منطق البحث الايكولوجي وفلسفته ، مشيرا إلى دراسة (الهرم المهني) كموضوع محوري في الايكولوجيا إلى جانب الاهتمام بدراسة التوزيعات المكانية

كذلك سارات معالجة هاولي لموضوع التمايز في نفس الخطوط التي سارت فيها معالجة دوركايم ، حتى أننا نجد توازيا واضحاً بين التنميط الدوركايمي للتضامن الآلي والعضوي ، وبين المفهومات الثنائية التي قدمها هاولي كالتعايش والتكافل والجماعات التابعة والمستقلة.. الخ ،

أن كلا من دوركايم وهاولي أشارا إلى نمطين مختلفين من العلاقات ونموذجين متباينين للتفاعل بين الوحدات المتماثلة والمتباينة وشكلين متميزين للتنظيم الاجتماعي استنادا على شكل العلاقات التي تسود كل منهما

أضف إلى ذلك أن كلاهما كان جادا في البحث عن العوامل التي أدت إلى القضاء على الانقسامية والعزلة بين الوحدات التقليدية والتي مكنت من الارتباط الوظيفي الوثيق للوحدات الكبرى وساعدت على تطوير بناء اجتماعي أكثر تعقيدا واشد تمايزا

وحتى في مجال الإيكولوجيا الثقافية وهي أكثر اتجاهات التفكير الايكولوجي حداثة ، يلاحظ انه ثمة التقاء جوهري واضح مع الخطوط المميزة للفكر الدوركايمي ، إذ على الرغم من أن ستيوارد لم يركز بصراحة على دراسة التنظيم مفضلا الاهتمام بالثقافة كمتغير تابع ، وعلى الرغم من تأكيده واهتمامه بالبيئة الفيزيقية على نحو يفوق اهتمام دوركايم إلا أن كثيرا من أفكاره كانت نتاجا للتأثير الدوركايمي غير المباشر من خلال إسهام دوركايم في مجال الانثروبولوجيا الوظيفية

وهكذا يتضح لنا أن جانبا كبيرا من أفكار دوركايم وتصوراته كانت تمثل مصادر سوسيولوجية مبكرة للمدخل الايكولوجي ، سواء في صورته التقليدية المبكرة أو في صورته الحديثة والمتطورة ،

ومع ذلك لا تزال نظرية دوركايم بحاجة إلى بعض التعديلات حتى يمكن الاستفادة بها في التحليل الايكولوجي إلى أقصى درجة ممكنة ، وربما كان أكثر هذه التعديلات أهمية ضرورة الاهتمام بالبيئة كعامل أو متغير تفسيري جدير بالاعتبار

فلقد تبين لنا من قبل كيف أن الايكولوجيا – نتيجة لما ورثته عن البيولوجيا – تفرد للبيئة الفيزيقية وأثرها على البناء الاجتماعي تقديراً بالغاً ، ولا يعني ذلك أن يتحول الباحث الايكولوجي إلى نوع من الحتمية البيئوية، بل يعني فقط أن يوضح مدى ملائمة البيئة كما هي معدلة بالاستخدام المنظم للتكنولوجيا كمتغير تفسيري.

وعلى الرغم من أن اهتمام الايكولوجي ينصرف في المقام الأول إلى دراسة التفاعل بين الإنسان وبيئته إلا انه كباحث سيوسولوجي لا يجد مفراً من دراسة العلاقات المنظمة بين الإنسان وغيره من بني جنسه داخل القاعدة البيئية وهذه بعينها جوهر التحليل المورفولوجي أو هي بمعنى اصح ما اسماه دوركايم(بالبيئة الاجتماعية) .